بسم الله الرحمن الرحيم

دور
الدين في المجتمع

obeikandl.com

دور الدين في المجتمع / مصطفى عمر التير، رولف فيغرسهاوس .- دمشق: دار الفكر، ٢٠١٠ .-
٢٢٤ص ؛ ٢٠سم. (سلسلة حوار مع الغرب).
ISBN:978-9933-10-201-2
١- ٢١٨,٨ ت ي ر د ٢- العنوان ٣- الـــتير
٤- فيغرسهاوس ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

obeikandl.com

سلسلة حوار مع الغرب

دور
الدين في المجتمع

د. مصطفى عمر التير
د. رولف فيغرسهاوس

obeikandl.com

2011=1432
دار الفكر – دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

سلسلة حوار مع الغرب

دور الدين في المجتمع

د. مصطفى عمر التير

د. رولف فيغرسهاوس

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٧٨,٠٣١
الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-201-2
التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (القضايا الإسلامية الاجتماعية)
٢٢٤ ص، ١٤ × ٢٠ سم
الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م
© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق
نشر هذا الكتاب بالتعاون مع معهد غوته – دمشق
GOETHE-INSTITUT
obeikandl.com

المحتوى

كلمة الناشر ٧

المباحث ٩

المبحث الأول : دور الدين في المجتمع ١١
الدكتور : مصطفى عمر التير

المبحث الثاني : دور الدين في المجتمع الحديث ... ١٣٩
الدكتور : رولف فيغرسهاوس

الفهرس العام ١٩٤

تعاريف ٢٠٥

obeikandl.com

obeikandl.com

حوار مع الغرب

عندما قال الشاعر الإنكليزي روديارد كيبلنغ (١٨٦٥-١٩٣٠) مقولته الشهيرة "**الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا**" لم يكن يعلم أن العالم سيتغير إلى درجة كبيرة، فالتطور العلمي والتقني في الاتصالات ووسائل الإعلام جعل العالم قرية صغيرة، فأهل الشرق يتأثرون بما يحدث في الغرب، والناس في الغرب يعرفون ما يحدث في الشرق ويتأثرون به، وربما تحركوا على الصعيد الشعبي والإنساني والسياسي لاتخاذ مواقف داعمة أو مناهضة.

لم يعد هناك شرق مطلق ولا غرب مطلق؛ ذلك أن الحضارة نتاج ثقافي شاركت في صنعه مادياً ومعنوياً العديد من الشعوب، فكانت الحضارة دُولة بينها.

لكن البعض يصر على أن العلاقة صراع بين الشرق والغرب، وهو يرى أن الحضارات الشرقية مختلفة من الناحية الثقافية والعقلية والعقائدية عن الحضارة الغربية؛ وأن الصراع بينهما حتمي، ويستحضر من التاريخ كل مآسيه، للنفخ في

كبير التطرف والكراهية، وبث العداء بين الشعوب، وإشعال نار الحروب؛ الثقافية منها والعسكرية.

وباعتبار أن لكل فعل رد فعل مماثل؛ يبدأ العنف بالظهور، وتبدأ معه التعبئة الفكرية والإعلامية والثقافية والأيديولوجية.

هكذا ظهر على الجانبين عدد من المفكرين الذين دعوا إلى التمركز على الذات، وإبراز تفوق حضارتهم الخاصة، متجاهلين الحضارات الأخرى وإنجازاتها، ومشاركتها في تقدم الإنسانية. مما كان له تداعيات سيئة على الحضارة الإنسانية عموماً.

من هنا برزت الحاجة إلى الحوار لتأسيس أرضية إنسانية مشتركة، بعيدة عن التعالي والتمركز حول الذات؛ تقوم على الحوار والتعارف والتكامل، فالحوار هو الطريق الموصل لتقارب الأفكار والرؤى، ولوضع الحلول التي تجعل الجميع أسرة واحدة بعد أن أصبحت الكرة الأرضية قرية واحدة.

تهدف هذه السلسلة من الكتب لتعريف كل طرف على فكر الآخر، وتقدم أبحاثها بموضوعية وجرأة بعيداً عن المجاملات، فالهدف هو الوصول إلى الطريق العملي للتعارف، وفهم الذات والآخر بوضوح، والتفهم لخصوصيات وثقافات الآخر، واحترام حقه بالاختلاف؛ وسيلةً لنمو الحضارة والثقافة الإنسانية.

obeikandl.com

دور الدين في المجتمع

١- دور الدين في المجتمع

الدكتور : مصطفى عمر التير

٢- دور الدين في المجتمع الحديث

الدكتور : رولف فيغرسهاوس

obeikandl.com

obeikandl.com

دور الدين في المجتمع

الدكتور : مصطفى عمر التير
أستاذ علم الاجتماع
ورئيس الجمعية العربية لعلم الاجتماع

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

عرف الإنسان الظاهرة الدينية منذ الزمن القديم، وتؤكد البيانات الأركيولوجية وعلم الآثار أنه عرفها في أكثر من مكان جغرافي بعد أن استقر في مركز من مراكز الاستقرار بغض النظر عن تصنيفه، بل يوجد من يقول إن نوعاً من أنواع الأفكار والمشاعر الدينية عرفتها كل جماعة بشرية بما في ذلك الجماعات التي تعارف المتخصصون في علم الإناسة على وصفها بالبدائية (Broom & Selzink, 1955: 396). والتصورات الدينية لمثل هذه الجماعات بسيطة ومحدودة بحيث تناسبت والدرجة المعرفية المحدودة التي توافرت للإنسان عندئذ. انحصرت التصورات الدينية في تقديم تفسيرات بسيطة لأهم الظواهر الطبيعية من نهار وليل ومطر ورعد ورياح، وأهم القضايا اليومية كالولادة والمرض والموت. ومع مرور الزمن تطورت التصورات الدينية، وترافقت مع نجاح الإنسان في الإقامة في مكان جغرافي محدد، ثم ببناء حضارة.

توضح بيانات علم الآثار أن الإنسان تمكن من بناء حضارة في أكثر من موقع. تتفق بيانات كثيرة، وخصوصاً المكتوبة، على أن البدايات الأولى للاستقرار في شكل من أشكال المدينة كان على ضفتي دجلة والفرات، وفي سورية الكبرى، وضفتي النيل، وفي مناطق متفرقة في حوض البحر الأبيض المتوسط والهند والصين (التير، ٢٠٠٥: ٣٩). كما تبين أن حضارات أخرى ليست بقدم تلك التي يشار إليها بالقديمة ظهرت في مناطق بعيدة عن التي أشير إليها آنفاً في بعض مناطق الأمريكتين. كما تشير المعلومات الأثرية، إلى أن الإنسان في جميع الحضارات التي تركت آثاراً منحوتة أو مكتوبة عرف شكلاً من أشكال الأفكار والممارسات الدينية، وأن آثاره أوضحت أن المعتقدات الدينية كانت محور أنشطة أبناء المجتمع.

يمكن القول إن المجتمعات المتقاربة جغرافياً تأثر بعضها ببعض، لكن الظاهرة نفسها عرفتها شعوب عاشت فيما يمكن أن يطلق عليه في التاريخ القديم في الأطراف البعيدة من الأرض مثل: الذين سكنوا القارة الأمريكية أو أسترالية، إذ يبدو أن الإنسان احتاج، وباستمرار، إلى الدين ليفسر بعض القضايا والظواهر العامة التي تتصل بأولويات الحياة فوق الأرض مثل: الخلق والوجود، والموت وما بعد الموت،

والخير والشر؛ وليطور تصوراً لمعنى ما يشاهد من ظواهر طبيعية لم يستطع فهمها بما توافر لديه من خبرة، كالبرق والرعد والمطر والعواصف؛ ولكي ينظم الأنماط السلوكية للفرد بواسطة نسق من القيم والمعايير ليتمكن من العيش مع الآخرين في مجتمع.

تضمنت الظاهرة الدينية الاعتقاد بوجود مخلوقات أخرى تعيش بين الناس لكنها لا ترى وإنما يمكن التعرف على آثارها. أشير إلى هذه بالأرواح، وبالملائكة، وبالجن.. إلخ. ويقبل الفرد منذ تجاربه المبكرة ضمن برنامج التنشئة الاجتماعية أن هذه المخلوقات تضر وتنفع، وتتسبب بالمرض، بما في ذلك الجنون، وتشفي من المرض، وتجلب الحظ كما تجلب النحس والشقاء. وتطورت ضمن مختلف الديانات معلومات تبين وسائل الاستفادة من هذه المخلوقات، ووسائل اتقاء شرها، وتقنيات التخلص من تأثيراتها السلبية. لذلك وجد في مختلف المجتمعات أشخاص لهم صفات وقدرات خاصة تمكنهم من التواصل مع هذه المخلوقات، تحاك حول هؤلاء حكايات وأخبار يكون للخيال فيها النصيب الأكبر، لذلك تخصص لهم مكانة متميزة، ويُسعى إليهم، وتقدم إليهم الهدايا. وقد يحتفظ بعضهم بهذه المكانة حتى بعد الوفاة، فتقام لهم المباني أو

الأضرحة، ويتوجه الناس لزيارتهم، ويستمرون في تقديم الطلبات. وبعد أن تطورت أساليب الحياة وتعلم الناس القراءة والكتابة، استخدم البعض الرسائل المتضمنة للطلبات ووضعها في مكان خاص في الضريح (الجوهري، ١٩٧٨).

منذ القدم تضمنت الظاهرة الدينية وجود رموز تحاط باحترام خاص، وطقوس وممارسات تؤدى بشكل فردي وأخرى في جماعة، وأنشطة تقام في مناسبات محددة وتأخذ مظاهر احتفالية وقد تتضمن طلبات أو تمنيات معينة.

تضمنت الظاهرة الدينية في مجتمعات كثيرة وجود إله، كما تفيد بيانات علم الإناسة أن بعض ديانات آسية القديمة لم تركز على وجود إله بقدر ما ركزت على وجود نسق من الأفكار والقيم. لم تقل بعض الديانات القديمة التي اعتقدت بوجود إله، بوجود إله واحد، ويبدو أن هذا كان بسبب تعدد الظواهر التي لم يستطع الإنسان فهمها وتفسيرها، لذلك تعددت الآلهة؛ واحد للخير وآخر للشر، واحد للجمال وآخر للقبح، واحد للحب وآخر للكراهية، واحد للمطر وآخر للريح، وهكذا. تصورها في البداية في شكل لا يختلف كثيراً عن الإنسان، لها أسماء، وتأكل وتتقبل القرابين المادية، وتنتظم على شكل أسر، فهناك الزوج والزوجة والأبناء، وتدخل في علاقات فيما بينها مثلما يفعل البشر؛ فهي تغضب

وتفرح، وتتعاون وتتحارب. تعلم الإنسان خلال هذه الحقبة أن عليه التقرب من الآلهة لكي ترضى عنه، وهذا الرضا شرط أساسي للتمتع بحياة سعيدة. تعلم الإنسان تقنيات التقرب إلى الآلهة بمزاولة طقوس معينة، وتقديم قرابين معينة، والالتزام بأنماط السلوك التي ترضى عنها الآلهة.

وجد تعدد الآلهة في الظاهرة الدينية في مجتمعات كثيرة؛ منها بلاد اليونان قبل المسيحية وبلاد العرب قبل الإسلام، وبين سكان شبه القارة الهندية التي عرفت ديانات كثيرة لعل أقدمها الديانة الهندوسية التي تنتشر بين ما يزيد على (١٤٪) من سكان الكرة الأرضية. وقد لا يقال الشيء نفسه عن ديانات تفرعت عن الهندوسية أو تزامن ظهورها معها وهي الديانات التي يشار إليها (بالديانات الأخلاقية)، ومن بينها البوذية والكونفشيوسية والطاوية.

ثم جاء عصر التوحيد عندما توصل الإنسان إلى القول بوجود إله واحد يعود إليه الفضل بتدبير جميع شؤون الكون. حدث هذا في مصر القديمة، ثم ظهرت الديانات التوحيدية الرئيسة. ظهرت هذه الديانات في منطقة جغرافية واحدة؛ وهي منطقة عرفت بوجود أهم الثقافات التي يمكن أن توصف وقتئذ بالعالمية. منذ البداية جاءت اليهودية لتكون ديناً خاصاً بجماعة بشرية بعينها، في حين جاءت المسيحية

والإسلام لكل البشر، لذلك انتشرا بين جميع الجماعات البشرية، وأصبح المؤمنون بكل منهما يعدون بمئات الملايين، ويوجدون في كل بقعة من بقاع الأرض.

منذ القدم تضمنت الظاهرة الدينية نسقاً من القيم أصبحت في كل مجتمع المصدر الرئيس لمعايير السلوك السوي، وأصبحت المصدر الرئيس لثقافة المجتمع ولمختلف الأنشطة الثقافية. ولرجال الدين دور هام في نقل القيم الدينية لأفراد المجتمع لتصبح ضمن برامج التنشئة الاجتماعية التي تتولى تعليم أعضاء المجتمع الصغار والجدد أساليب التعامل مع بقية أعضاء المجتمع ابتداء من الجماعة الصغيرة الأولية (الأسرة) إلى بقية الجماعات الأكبر حجماً من الأسرة، ليتمكنوا من العيش في مجتمعهم فاعلين اجتماعيين. كما يتولى الكبار في المجتمع مهمة المحافظة على القيم الدينية ونقلها إلى صغار المجتمع. وبعد أن عرفت المجتمعات المدرسة أصبحت هذه المؤسسة من بين أهم المؤسسات التي تعمل على تربية الصغار، وعلى أن يتشرب الصغار قيم مجتمعهم، ودخلت فيما بعد وسائل الإعلام، ولا سيما المسموع أولاً ثم المرئي ثانياً، ساحة التعليم، وأصبحت من بين أهم مصادر التنشئة الاجتماعية. ويلاحظ خلال السنوات الأخيرة تكاثر المحطات الإذاعية والفضائيات

المتخصصة في تقديم برامج تحمل معاني وعناوين دينية، وهي برامج لا تعكس بالضرورة ثوابت الدين الذي تمثله، بل تعكس تياراً في التراث الديني، لذلك توظف لخدمة أهداف معينة، والمدرسة الفكرية التي يتبناها المشرفون على المحطة.

يفرق بعض الدارسين من رجال الدين ومن غيرهم بين الأديان التوحيدية أو السماوية الأخرى التي عرفتها الشعوب القديمة في كل من إفريقية وآسية والأمريكتين وأسترالية، التي عرفتها جماعات يطلق عليها بدائية؛ لذلك يقصرون تعبير «الظاهرة الدينية» على تلك الأفكار التي بها شيء من المعتقدات وبعض أنماط السلوك وعرفها الإنسان القديم، ويقصرون كلمة دين على الأديان الثلاثة الرئيسة (فكار، ١٩٨٠: ٢١٨). لكن إذا كان الحديث حول أنماط السلوك التي يؤديها الفرد بناء على إيمانه بدين فبالإمكان الحديث عن ظاهرة دينية. وأيضاً لكوننا نتحدث عن دور الدين في المجتمع، وعن العلاقات المتبادلة بين الفرد ونسق القيم بغض النظر عن مصادرها، ولا نتحدث عن معتقد ديني بعينه، فلن يكون للتمييز الذي يعتمد على الاعتراف بدين بعينه ويستبعد البقية أي معنى. مع أن الكثير من رجال الدين في أي من الأديان التوحيدية الكبرى لا يقبلون بتسمية الديانات القديمة ديانات.

ظهرت اليهودية ثم المسيحية فالإسلام، ويعترف الدين الإسلامي بجميع الأنبياء والرسل الذين جاء ذكرهم في الدين اليهودي وفي الدين المسيحي، ويعترف بسماوية الدينين، لكن لا يقول اليهودي العادي ولا المسيحي إن الدين الإسلامي دين سماوي.

تكتنف محاولة الحديث عن دور الدين في المجتمع ضرورة الجمع بين جميع الأديان التي عرفها البشر، إلا أن صعوبات كثيرة تعترض طريق القيام بمثل هذا العمل، لعل أهمها خطر الوقوع في التحيز، بسبب عدم توافر بيانات كاملة عن جميعها وبالقدر نفسه، لذلك تقرر لغرض البحث الحالي حصر كلمة دين في الديانات الرئيسة الثلاث أولاً لقوة صلتها بعضها ببعض من حيث مكان النشأة وطبيعة النصوص. وثانياً لأنها هي المسيطرة من حيث الانتشار في المجال الجغرافي للثقافات الرئيسة. وثالثاً لوجودها، وخصوصاً بالنسبة إلى المسيحية والإسلام، في المجتمعات التي تسودها ديانات أخرى، وغياب الديانات الأخرى عن المجتمعات التي بها أغلبية مسيحية أو إسلامية. ورابعاً لوجود الجماعات والتنظيمات الدينية التي سيرد الحديث عنها في هذا البحث، وتوافر المعلومات عنها في الأدبيات المكتوبة، وفي وسائل الإعلام.

المهتمون بالحديث عن دور الدين في المجتمع كثر، وينتمون إلى خلفيات ومدارس مختلفة، لذلك يتخذون زوايا مختلفة ينظرون من خلالها للدين من حيث المفهوم والمكانة والدور. فبعض الذين قاموا بأبحاث في هذا المجال رجال دين. وكان هؤلاء في كل دين بغض النظر عن تصنيفه، وخلال مختلف العصور. جرت العادة أن يضع الواحد من هؤلاء حدوداً لبحثه ونقاشه على شكل ضوابط لا يجوز تجاوزها، تتمثل في ثوابت العقيدة وشروط الإيمان بحسب كل دين. ففي الديانات السماوية يتم الالتزام بأن الدين جاء من السماء عن طريق وحي نزل على نبي، وكل ما فيه لخير البشرية. وعليه فأقصى ما يمكن أن يقوم به باحث هو الاجتهاد في شرح وتفسير النصوص، وتتبع شروح وتفسيرات الآخرين، والمقارنة بين مختلف الاجتهادات، والتعليق على الكيفية التي قدم بها المجتهد اجتهاده.

يفترض أن الشرح والتعليق يتم - نظرياً على الأقل - بالنظر للنصوص الأصلية؛ أي ثوابت الدين. لكن، وفي بعض الحالات، لا يوجد اتفاق تام على حرفية النصوص الأصلية، وما يعرف بالكتاب المقدس بالنسبة إلى دين من الأديان عبارة عن تجميع لكتابات أعدها أشخاص مختلفون، وفي أزمنة مختلفة، لذلك يجد الباحث المدقق اختلافات

وتناقضات يتصل بعضها بأهم القضايا الرئيسة. حدث هذا بالنسبة إلى التوراة مثلاً، أو ما يعرف عند المسيحيين بالعهد القديم، ولم يحدث الشيء نفسه بالنسبة إلى الإسلام فيما يتعلق بنصوص القرآن، ففي هذه الحالة لا يوجد خلاف على جميع ما يحتويه. لكن الذي حدث أن كل دين تخصص فيه منتسبون له في قضاياه، وأخذوا على أنفسهم مهمة تفسير النصوص، وتعليم الآخرين قضايا دينهم، بناء على التفسير الذي توصلوا إليه، أو توصل إليه آخرون تتلمذوا على أيديهم. النتيجة المباشرة لمثل هذا النشاط ظهور تفاسير كثيرة ومتنوعة، انتظم بعضها ليأخذ شكل تيار رئيس أطلق عليه فيما بعد اسم مذهب ديني أو طائفة دينية، وبمرور الزمن تراكم تراث يضم التفاسير والاجتهادات والتعليقات والكتابات، لذلك يضطر القادم الجديد لهذا الميدان إلى التعامل مع هذا التراث. ويحدث في حالات كثيرة أن يحصل التراث على جل الاهتمام، ويظهر وكأنه المحتوى الأساسي للدين. ويظهر الاتجاه الجديد أو الطريقة الجديدة أو التفسير الجديد وكأنه يمثل عودة إلى الجذور، وبعبارة أخرى: التفسير الجديد هو التفسير الوحيد الصحيح، وعلى الجميع اتباع هذا التفسير الجديد، وبلغت حدة التعصب لبعض مثل هذه الآراء إلى حد تكفير كل من لا يقبل به.

نشط المفسرون منذ العصر الأول لظهور كل من الديانات السماوية، ونجح بعضهم في تطوير وتفسير خاص به، ثم نجح في الحصول على عدد من التابعين والمؤيدين، وبذلك نشأت الفرق الدينية التي ترسخ بعضها ليصل إلى مستوى المذهب الديني. وعلى مر الزمن توسعت الخلافات بين المذاهب في داخل الدين الواحد، بحيث وصلت في بعض الحالات إلى مستوى الحروب الدينية.

إلى جانب ما تقدم ظهرت تيارات عند بعض المتخصصين في دراسة القضايا المتعلقة بالدين إلى القول بأن ما تعرض إليه العالم خلال العقود الأخيرة، وخصوصاً تنامي ظاهرة العولمة، سينتج عنه ظهور أنساق قيمية لا تتأثر كثيراً بالتعاليم الدينية. وهذا أمر طبيعي، فنسق القيم الرئيس في الثقافة تكونه مصادر متعددة؛ من بينها العادات والتقاليد التي سادت قبل سيادة الدين، والاستعارات من ثقافات أخرى، وما يتوصل إليه العلم.. إلخ. لذلك لا يمثل هذا موقفاً جديداً من الدين، فمنذ القدم اهتم البعض برصد حركة تطور الأفكار عبر الزمن، بما في ذلك الأفكار والمعتقدات الدينية. تبين لهؤلاء أن الفكرة الدينية الواحدة تتغير وتتبدل وتتطور عبر العصور؛ فمثلاً سجلت صور كثيرة للإله، ظهر عند البعض وفي بعض المجتمعات على شكل امرأة اتخذت

أسماء متعددة باختلاف المناطق، وكذلك ظهر الإله المذكر. كما تصوره البعض ضمن المكونات الفلكية فكانت الشمس وكان القمر وكانت نجوم بعينها، وكذلك ضمن ظواهر الطبيعة من مطر ورياح، وكانت الطيور وكانت الحيوانات وهكذا.

يرى أغلب الذين اهتموا بالنظرة التطورية هذه أن الزمن في مصلحة العلم من حيث تعاظم نسبته في مكونات الثقافة، ويتم هذا على حساب نسبة تأثير الدين، بحيث يأتي اليوم الذي يكون فيه العلم إله المستقبل. وبعبارة أخرى كلما تقدمت المعرفة العلمية تنخفض مكانة الدين ويضعف دوره في المجتمع، وسيأتي يوم ينتهي فيه ويزول من على الأرض. وتجدر الإشارة إلى أن الملاحظات الميدانية حتى الآن لا تؤيد صحة هذا التنبؤ، فحتى عندما تولى النظام السياسي إلغاء جميع المظاهر الدينية بالقوة، واستمرت عملية القمع هذه لعقود، وتصور البعض بأن الدين انتهى في تلك المجتمعات، تبين أنه توارى عن الأنظار، وبقي مختبئاً في الذاكرة الشعبية، ليظهر من جديد وبقوة فور زوال الدور التسلطي للدولة الاستبدادية.

لكل دين نصوص، وهي محاطة - بطبيعتها وبالضرورة - بهالة من التقديس. وفي كل مجتمع أو في ثقافة المجتمع

مساحة يشار إليها بالمقدس. قد يحتل النص الديني جميع مساحة المقدس في ثقافة المجتمع، وقد يحتل نسبة منه. يحتل الدين جميع المساحة المخصصة للمقدس في كثير من المجتمعات البسيطة التي يشير إليها بعض علماء الإناسة بالبدائية، لكن في المجتمعات التي مرت بمراحل من التغير أو التطور توجد في مساحة المقدس أشياء ليست من بين مكونات الدين. ولكن حتى في هذه الحالة الأخيرة فإن جوانب المقدس التي ليست من بين النصوص الدينية تتأثر كثيراً بالنصوص الدينية.

يحاط المقدس في داخل كل ثقافة بهالة من التقديس تضمن احترامه وطاعة الأوامر المنبثقة عنه، ويدخل بعض المقدس ضمن التنظيمات المجتمعية المترجمة في مواد قانونية، ومواد أخرى مفسرة للمواد القانونية، تعمل جميعاً لتنظيم أشكال الحياة الاجتماعية في داخل المجتمع. يخصص المجتمع هيئات وجماعات تتولى مهام تنفيذ مواد القانون ومتابعة المخالفين، والعمل على أن يحترم الجميع القانون والسير وفق قواعده، ولم يؤثر هذا في دور رجل الدين في المجتمع. اجتهد البعض في السابق من نفسه للتخصص في قضايا الدين ليحتل مكانة اجتماعية يعترف بها المحطيون به. لهذا الاعتراف مؤشرات لعل أهمها مراجعته

لمعرفة الطريق السليم لمزاولة الطقوس الدينية على المستوى الفردي، ويقود مزاولة الطقوس في حضور جماعة، والاهتمام بفهم وتفسير النصوص، وتقديم النصح والإرشاد، وإصدار فتاوى دينية. ثم فيما بعد تطورت الأمور وتعقدت، وظهر ما يعرف بالمؤسسة الدينية، وأنشئت مدارس دينية تتخصص في إعداد رجال الدين، وطورت قواعد تنظم أنشطة رجال الدين، وتحديد مكافآت لقيامهم بمهام محددة بعضها تعليمي وبعضها الآخر إرشادي.

حرصت بعض المجتمعات على تقوية المؤسسة الدينية وجعلها مؤسسة رسمية، كما حاولت أن تقصر مهنة رجل الدين على الذين ينتسبون للمؤسسة الرسمية. لكن هذا لم يمنع المهتمين من خارج المؤسسة الرسمية من التخصص في هذا المجال معرفياً، لذلك يوجد في كل مجتمع أشخاص رجعوا إلى النصوص الأصلية واجتهدوا في تطوير تفسيرات تختلف عن تفسيرات من سبقوهم. التزم بعض هؤلاء بالتيارات الرئيسة في مجتمعاتهم، في حين فضل البعض الخروج على التيارات الرئيسة أو التيارات الرسمية، والاجتهاد بأسلوب خاص وضعهم في بعض الأحيان في مواجهة مع السلطات الدينية الرسمية ومع السلطات السياسية.

تؤكد النصوص الدينية في الأديان الرئيسة تفوق الإنسان على بقية الحيوانات، وتبين أن السبب الرئيس هو تمتع الإنسان بالعقل، وأن هذا العقل هو الذي ساعد الإنسان على التفكير والتمييز، ومكنه من فرض سيطرته على جميع الحيوانات مع أنه ليس أقواها فيزيقياً. ومع ذلك عرفت هذه حقباً تاريخية نجح فيها رجال الدين في تحجيم سلطة العقل، وحصرت مهمته في حفظ النصوص الدينية، وتفسير مفرداتها بمفردات أخرى، والإغراق في البحث عن جذور الكلمات وعن أصلها؛ أي حصر الاجتهاد في بنية النص، والمحافظة على النقاش في حدود ضيقة، وعدم السماح بإخضاع ما تضمنته النصوص من وقائع وأحداث وبيانات للبحث والتفكير. وعندما فسرت النصوص الدينية بحيث جعلت الأرض هي مركز الكون وأن الشمس وغيرها من الكواكب والنجوم هي التي تدور حول الأرض، كفر كل من حاول وضع هذه الحقيقة على شكل فرض قابل للاختبار. سيطر خلال هذه الحقب الفكر الخرافي، والتفسير الغيبي للظواهر الطبيعية والسلوكية، وإعطاء الأولوية للطقوس، ولأهمية إرضاء الخالق، والتوسل إليه بوسائط مختلفة بما فيها فئة من أبناء البشر حيكت عنهم حكايات خرافية، بحيث بدوا وكأن لهم قدرات خارقة وهم يرقدون في قبورهم منذ مئات السنين.

يحق - نظرياً - لكل مؤمن بدين ما الاجتهاد فيه، وهذا الذي حدث خلال مختلف العصور. قادت بعض هذه الاجتهادات خلال القرن العشرين بصفة خاصة إلى تكوين جماعات سرية تبنت التعصب والتطرف، وعبر بعضها عن نفسه في شكل أعمال عنف أحدثت فوضى على مستوى المجتمع الذي تنتسب إليه، ووصلت هذه الفوضى في بعض الحالات إلى خارج الحدود السياسية للبلد، وأصبحت تهدد حالة التوازن والأمن العالميين، لذلك سنفرد لها في هذا البحث حيزاً مناسباً. لكن قبل أن نصل إلى هذا الجزء لابد من مناقشة بعض خصائص الدين، وأولها وظيفته في المجتمع.

obeikandl.com

وظائف الدين في المجتمع

اقتصر النشاط البحثي في مجال الدين في البداية على رجال الدين الذين وجهوا اهتماماتهم الرئيسة نحو شرح النصوص، وتبسيطها، وتبيان الإجراءات الخاصة بتأدية الفرد لعباداته. ثم انضم إلى هؤلاء فيما بعد متخصصون في مختلف مجالات المعرفة لعل أهمهم الفلاسفة والمتخصصون في علوم اللغة والإناسة والاقتصاد والنفس والاجتماع والقانون والتاريخ.. إلخ. يمكن القول إن كثيرين من المهتمين بمناقشة قضايا الدين يرون أن التوسع في مشروعات البحث في الظاهرة الدينية من قبل المتخصصين في العلوم الاجتماعية إنما كان بسبب الحريات التي صاحبت تلك الحركة الفكرية التي اجتاحت أوربة وسميت بعصر التنوير (Durkheim, 1947; Lenski, 1961). ونتج عن هذا النقاش تيارات فكرية ومدارس نظرية من بينها المنظور الوظيفي الذي اهتم المتخصصون فيه بوظيفة الدين في المجتمع، وما يقدمه للفرد من فوائد، وما قد يكون من وظائف سلبية.

انطلق عمل هؤلاء بسيل من الأسئلة التي غربت وشرقت، بحيث لم يستثن سؤال ورد إلى الذهن؛ بما في ذلك التشكيك في ثوابت الدين الذي ينتمي إليه الباحث. في الماضي ظهر التشكيك في بعض ثوابت دين الآخر، ولم يتجرأ الباحث على التشكيك في دينه وإلا تعرض لأقسى درجات العقاب، لكن ومع انطلاق عصر الحريات الفكرية صار بإمكان البعض التشكيك في كل شيء. لا يعني هذا أن أسلوب كثرة الأسئلة كان مقبولاً اجتماعياً، بل كان مرفوضاً، إلا أن الرفض لم يصل إلى درجة إقصاء صاحب السؤال نهائياً. من المفيد الإشارة إلى أن الذين يؤرخون لهذه المناقشات المتحررة يحصرونها في الغالب في داخل الدين المسيحي، لكن الذي يراجع التاريخ بشيء من الدقة يعثر على مناقشات لا تقل جرأة عن التي جرت خلال القرون التي بدأت بالقرن السادس عشر أو السابع عشر قام بها رجال دين ومتفلسفون يهود مشككين في درجة مصداقية بعض ما جاء به أنبياء ورسل اليهود. الشيء نفسه حدث عند المسلمين عندما ازدهرت حضارتهم، فكثير مما أنتجه مفكرو المعتزلة يقع تحت حرية الفكر التي لم تستثن موضوعاً، بما في ذلك المقدس. صحيح أن هذا الاتجاه لم يستمر طويلاً، وأن تأثيره في الفكر الديني كان محدوداً، فقد سادت تفسيرات الذين ضيقوا مساحة الحرية في هذا المجال، وأعطوا

لأنفسهم حق تكفير المسلم، وحق إصدار فتاوى (هدر الدم)، مما ضيق مجال الأسئلة التي يحق للمسلم المجاهرة بها، ولكن لم تخل الساحة بالكامل من أصوات حاولت تفسير الفكر الديني بتفعيل دور العقل إلى حد كبير.

وبناء على ما تقدم، عندما يتم الحديث عن الذين ساهمت كتاباتهم في تطوير المنظور الوظيفي للدين، يذكر دوركايم وفيبر ومالينوسكي وترولیتش وغيرهم. لكن الذي يريد أن يؤرخ لهذا المنظور، ودون تحيز، لابد أن يذكر ابن خلدون. فهذا الباحث العربي الذي عاش في القرن الرابع عشر، سبق غيره في مناقشة دور الدين مستخدماً مفاهيم تقع ضمن مفاهيم علم الاجتماع. ومن يمكنه تخصيص مساحة ووقت طويل لإجراء مقارنات بين ما كتبه ابن خلدون في هذا المجال وما كتبه دوركايم من بعد، فسيجد نقاط تشابه كثيرة كما سيجد نقاط اختلاف.

خصص ابن خلدون للدين في مقدمته أجزاء متعددة في مواقع مختلفة، لكن على أنه مسلم التزم بثوابت الدين وتعرض لها شارحاً، أو اتخذها مثالاً يعزز به ملاحظة أو رأياً. قبل ابن خلدون بأن الإسلام آخر الأديان وأكملها وأنه دين كل الناس، والدين الذي يضمن للبشر العيش في حالة توازن مع الطبيعة البشرية، وأكد الدور الهام للدين في تقوية العلاقات الاجتماعية، وهي حالة ضرورية لإقامة عصبية،

وهذه بدورها ضرورية لإقامة دولة وإقامة حضارة. لذلك إذا ضعف الوازع الديني، ضعفت العلاقات الاجتماعية، وضعفت العصبية ومن ثم الدولة، وانهارت الحضارة (ابن خلدون، ١٩٩٩: ٢٧٨ - ٢٧٩).

عندما نشر دوركايم فيما بعد كتابه حول الدين، اتفق مع بعض الآراء التي ذكرها ابن خلدون على أنها وظائف هامة يمكن للدين أن يؤديها لفائدة قيام مجتمع بشري سعيد وقوي. وأكد دور الدين في تنظيم العلاقات الاجتماعية بما تضمنه من قواعد، ابتداء بتلك الخاصة ببناء الأسرة والمحافظة عليها، واحترام الملكية الخاصة، وأكد كذلك دور الأفكار الخاصة باحترام الملكية، والطاعة الكاملة للحاكم، للمحافظة على الأمن الاجتماعي، إلى جانب تقديم خدمات من شأنها توفير الدعم المعنوي للفرد، ومساعدته على العيش في حالة من التناغم مع النفس، وما يتعلق بحاجاته النفسية.

ساهم عدد ممن جاء بعد دوركايم في التمييز بين الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة أو غير الظاهرة، وإلى ما يمكن أن يصنف بالوظائف السلبية وبالوظائف الإيجابية. بالتأكيد يعتمد ما يدخل تحت أي تصنيف على وجهة النظر التي ينطلق منها المصنف، وإلى جانب هذا يمكن التصنيف على مستويين: الفرد والمجتمع.

أولاً- الوظائف الموجبة

أ - على مستوى الفرد

١- الراحة النفسية المتوافرة للفرد نتيجة إيمانه بوجود إله خالق قوي، وموجود في مكان ما، ويستطيع مراقبته في جميع الأوقات، وأن تأديته لواجبات فرضها الإله ستقربه منه، وتجعل منه شخصاً مستقيماً. والحصول على رضا الإله مطلب عام، والاستقامة في القول والفعل من بين أهم المبادئ المتضمنة في أي معتقد ديني؛ لأنها المكون الأساس للأخلاق؛ الجانب الرئيس لاستمرار حياة اجتماعية في المجتمع.

ومن جهة أخرى يحصل الفرد على راحة البال عندما يحيل كثيراً من الأسئلة الصعبة التي لا يجد لها إجابات إلى قوة كبرى أقوى منه، فهذه القوة لديها جميع الإجابات، ويمكن أن تمد بها الإنسان في يوم من الأيام، أو أن يتعرفها عندما ينتقل إلى عالم آخر. فمنذ البداية نظر الإنسان إلى الحياة الدنيا على أنها مرحلة قصيرة ضمن حياة طويلة أو أبدية. وفكرة الثواب والعقاب والجنة والنار موجودة بصورة أو أخرى في أغلب الديانات (السواح، ٢٠٠٤).

٢- لا توجد مساواة بين الأفراد في مختلف الصفات والإمكانات، سواء ما يتصل بالصفات البيولوجية أم

المكتسبة. الإيمان بوجود خالق وحكيم وزع الصفات والإمكانات بين الناس بهذا الشكل يجعل الفرد يرضى ويقتنع بوضعه بغض النظر عن حظه. فالمعتقدات الدينية تزوده بمعرفة أو معلومات تؤكد وجود حكمة وراء هذا التوزيع غير العادل، وأن ما فات الفرد في الدنيا سيعوض عنه في الحياة الأخرى إذا أحسن التصرف.

ب- على مستوى المجتمع

١- لكل جماعة مهما صغر حجمها ثقافة، وفي كل ثقافة نسق للقيم يحدد لأفراد المجتمع أنماط السلوك التي يجب السير فيها. ومع أن لنسق القيم أكثر من مصدر، والدين واحد منها، إلا أن الدين يضفي على القيم قداسة تقويها، وتؤكد احترام الجميع لها، بل الخضوع لها دون نقاش. ومن شأن هذا الوضع أن يرفع من درجة انضباط أفراد المجتمع، ويمكّن أولي الأمر من إصدار أي أوامر، بما في ذلك التي قد تتعارض مع مصلحة الفرد، وأن يضمن انصياع الرعية لها.

٢- يعمل الدين على المحافظة على السلام والأمن الاجتماعيين في داخل المجتمع الواحد. ففي أي مجتمع لا تتوزع الثروة ولا القوة بالتساوي بين أعضاء المجتمع، مثل هذا الوضع من شأنه أن يكون مصدراً لحالات عدم

الرضا والرفض والتململ الاجتماعي وحتى الثورة. وتساعد برامج توظيف تفسيرات كثير من النصوص الدينية، التي تكون مصادر القيم الرئيسة، على خفض درجات التوتر. لا تقضي هذه البرامج على حالات عدم الرضا نهائياً، ولكنها تعمل على عدم تعقدها، وتحولها إلى حالة من حالات التململ الاجتماعي، الذي إذا استمر، وتوافرت ظروف مناسبة، انفجر على شكل حالة من التمرد الواسع والفوضى.

٣- من طبيعة المحافظة على الحياة اهتمام الفرد بنفسه، وبما يضاعف مصالحه، ولكن إذا حصر كل فرد جميع أنشطته لخدمة مصالحه الخاصة استحال بناء مجتمع مستقر، لذلك من الضروري أن يخصص كل فرد جزءاً من مجمل نشاطه لخدمة آخرين، وخدمة مصالح عامة. وهنا يقوم الدين بدور هام في تقوية الرغبة في خدمة الآخرين، وخدمة المصالح العامة، بما يقدمه من وعود لمكافآت في حياة ما بعد الموت. ووجود فكرة الحياة الأخرى من شأنه أن يعطي لتصور الفرد للحياة استمرارية، وبعداً يقوي عدداً من الأفكار التي من شأنها خدمة تماسك المجتمع واستمرارية وحدته مثل التضحية والأثرة والخير.. إلخ.

٤- يحتاج الفرد إلى الشعور بالانتماء إلى كيان اجتماعي صغير مثل الأسرة أو الحي أو المدرسة أو جماعة العمل،

ويكبر الكيان قليلاً ليصل إلى المدينة أو القبيلة، ثم يكبر ليصل إلى الوطن فالأمة. عوامل كثيرة تعمل على ظهور هذه الانتماءات، ثم لتقويتها ولاستمرارها. يقوم الدين - بما يتضمنه من قواعد - بدور هام لكسب هذه الانتماءات قوة. تتصل هذه القواعد بمختلف أشكال الوحدات الاجتماعية؛ فبالنسبة إلى الأسرة، يحتوي الدين على قواعد كثيرة تؤكد أهمية الأسرة، وضرورة الحفاظ على علاقات قوية بين أعضائها، بما تبينه من واجبات كل عضو تجاه الآخر، وحقوق كل عضو من أعضائها، ثم تقوم الأسرة بدور هام في تعليم أبنائها كيفية المحافظة على انتماءات أكبر. وبصفة عامة يعمل الدين على بناء مشاعر هامة وهي المشاعر المتعلقة بالهوية.

لعل الهوية من بين المفاهيم التي ما زالت الاختلافات حول تحديد معناها كثيرة، ولكونها من بين أهم المفاهيم المستخدمة في مجال العلوم الاجتماعية لوصف قضايا الحياة الاجتماعية اليومية، فإن كثرة الاختلافات حول تحديد المفهوم لم تؤثر في تواتر استخدامه بمعدل يومي. ومع تنوع التعريفات إلا أن بعضها وضع في صورة مبسطة؛ فمثلاً قيل إن الهوية هي تلك الصورة التي يقدم بها الفرد نفسه للآخر، ويجتهد في التصرف أمام الآخر بما ينسجم مع حدود هذه

الصورة (Holland, et Al., 2001: 3). ومع بساطة هذا التعريف إلا أنه يفي بالغرض العام لهذا البحث. ولكون الفرد يعيش في وسط جماعة يرتبط مع أعضائها بعلاقات اجتماعية، يتوقع أن يطور في وقت مبكر تصوراً عن هويته؛ فهو يدرك بداية في داخل الأسرة هويته النوعية؛ من لون الألبسة التي تخصص له، ومن نوع المعاملة التي يعامل بها في أثناء الأنشطة اليومية. ثم يدخل بعد مدة في علاقات مع جماعات أكبر حجماً من جماعة أسرته المباشرة؛ الأقارب، والجيران، وجماعة اللعب في الشارع، ثم المدرسة وهكذا.

نوع آخر من العلاقات ليست مباشرة بهذا الشكل، وهي التي تربط الفرد بجماعات حجمها كبير؛ من جماعة التيار السياسي وجماعة المدينة، إلى جماعة الوطن، وانتهاء بجماعة الأمة. يفخر الفرد بانتماءاته ويفاخر بها مع من يختلف معه، ويظهر هذا على مستويات مختلفة؛ الأسرة، القرية، المدينة، القبيلة، القطر وهكذا. يفخر الفرد بانتمائه إلى جماعات، وإلى جانب هذا يحتاج هو إلى الشعور بالانتماء. يمكن أن يختار الفرد بعض انتماءاته كالانتساب إلى تيار فكري أو سياسي أو جماعة علمية أو مهنية، لكن بعض أهم انتماءاته لم يكن له فيها حرية الاختيار، وهنا يكون للدين دور مهم في انتماء الفرد إلى فضاء أرحب من

حيث المساحة والعدد والتاريخ؛ فالدين يوحد بين أفراد ينتمون إلى وحدات سياسية مختلفة، وإلى أزمنة تاريخية مختلفة. ويساعد توسيع مجال الانتماء على أن يشعر الفرد بأهمية خاصة، فالمشاعر التي يشعر بها الفرد بالانتماء إلى جماعة كبيرة الحجم تختلف عن مشاعر الانتماء إلى جماعة صغيرة.

منذ البداية يكون الدين موجوداً في تكوين صورة الفرد لنفسه، ففي جميع هذه الجماعات التي أشير إليها آنفاً يعرف الفرد أن له ديناً. علاقة الأفراد بالدين في المجتمع نفسه ليست واحدة، لذلك يختلف أعضاء المجتمع الواحد في هوياتهم الدينية. ففي البداية لا يختار الفرد لنفسه ديناً، وإنما ينتسب إلى دين بحسب تربيته المنزلية. ومنذ البداية يتعلم الفرد قواعد الإيمان، وممارسات العبادة، وأنماط السلوك المنسجمة مع قواعد الإيمان. ويظهر اختلاف أفراد المجتمع الواحد في درجات انتماءاتهم الدينية، ويتمثل في مناشط العبادة، وفي أنماط السلوك.

لا تتكون الهوية الدينية دفعة واحدة، وإنما هي عملية تستمر لمدة زمنية، وتتأثر بعوامل محلية، وذاتية، وخارجية (Browne, et al., 2003: 1 - 4). تبدأ عملية تكوين الهوية الدينية بناء على عوامل محلية ليس للفرد سلطة عليها؛

عوامل موجودة في البيئة المحيطة بالفرد مباشرة؛ في داخل الأسرة أو ما يشابهها، ثم تنشط فيما بعد عوامل ذاتية تساهم بنصيب في تشكيل الهوية وتتمثل في درجة الإيمان، وفي درجة الالتزام بتأدية الشعائر، وفي درجة الالتزام بثوابت الدين في أنماط السلوك اليومية، ثم في درجة الاجتهاد في تفسير النصوص، وفي درجة التشدد، وفي درجة توظيف الدين في مجالات الحياة العامة من سياسية إلى اقتصادية، وهكذا.

تتأثر صورة الهوية الدينية بعوامل خارجية عندما يدخل الفرد في علاقات اجتماعية مع جماعات تختلف مع جماعاته المرجعية في الخصائص الثقافية وفي الدين، فقد يجد الفرد نفسه بحكم وجوده على كرسي الدراسة، أو في مكان السكن، أو في مكان العمل، في علاقات مع جماعات مغايرة له دينياً. تتيح بعض المجتمعات هذه الفرصة في داخل المجتمع، ولكن يحدث في أحيان كثيرة أن تتأتى هذه الفرصة في حالة السفر إلى خارج البلاد. يختلف الأفراد في تعاملهم مع هذه الظروف بالنسبة إلى الإعلان عن الهوية الدينية، وإلى الكيفية التي يقدم بها هويته للآخر. قد تحدث هذه العوامل الخارجية تأثيرات في هوية الفرد الدينية الأصلية، كما أنها تأخذ أشكالاً مختلفة؛ فقد يبدأ الفرد

بتصور أن الدين المنتمي إليه هو الدين الحق، وعلى المختلفين تغيير دياناتهم، وفي هذه الحالة قد يقوم بأنشطة متنوعة لتنفيذ ما يؤمن به على أنه الحق، لذلك لم يقبل المهاجرون من أوربة إلى بلدان استعمروها بالديانات المحلية، وعملوا بمختلف الطرائق والوسائل على تنصير المواطنين الأصليين. قد يحدث في بعض الأحيان أن يغير الفرد من درجة تمسكه، ويقبل بالآخر، ويعترف به، ويدخل معه في حوارات وفي تحالفات، وقد تحدث تغييرات في درجات تمسكه بدينه وبمزاولة الشعائر، وقد تذهب التغييرات في اتجاه معاكس بحيث ترتفع درجة تعصبه وتطرفه، أو انتقاله إلى الجانب الآخر.

ليست الصورة السابقة التي رسمت لتكون الهوية الدينية الصورة الوحيدة الممكنة، ففي حالات كثيرة وفي مختلف الأديان قد يولد شخص في أسرة تنتسب اسمياً للدين من دون مزاولة أية واجبات دينية، وقد يولد طفل في داخل أسرة لا تدين بدين. قد يقرر هذا الطفل فيما بعد الانتماء إلى دين يختاره، وقد يمر قبل اختيار هوية دينية بمناقشة مكونات عدد من الأديان، ويبدو أن درجة تدين من يمر بمرحلة التفكير في مكونات الدين سواء الذي اختاره بنفسه، أو الدين الذي وجد عليه والديه، يكون

انتماؤه الديني قوياً بالمقارنة مع زملائه. وفي دراسة بين شبان مسيحيين وُجد أن الشاب يمر في حياته بمرحلة يشكك فيها في ثوابت الدين، وقد يصل إلى درجة يرفض فيها الدين نهائياً (Bellah, et al., 1990: 60 - 62)، وليست هذه النتيجة حكراً على الدين المسيحي. قد تقصر مرحلة الرفض وقد تطول، أي قد يستمر الشاب في مرحلة الرفض، وقد يرجع للدين وبدرجة قوية.

يوسع الانتماء الديني المساحة الجغرافية للفرد؛ لأن الدين في أغلب الحالات موجود عبر الحدود السياسية للدول. وبغض النظر عن المساحة الجغرافية التي يكون فيها الفرد في داخل حدود سياسية، توسع الهوية الدينية - من الناحية النظرية على الأقل - المساحة الجغرافية التي يمكن للفرد التنقل عليها. كما يساهم البعد العددي في تقوية مشاعر الفرد بأهميته، وتصبح درجة أهميته أكبر من التي تقدمها له الهوية الوطنية. لا يعني هذا أن التنقل الفعلي عبر الحدود السياسية يتم دون عوائق، لكن إمكانية هذا التنقل عند الحاجة موجودة على المستوى النظري، ويعطي الشعور بإمكانية حصول الفرد على الدعم بأشكاله المادية والمعنوية قوة خاصة. وعليه يمكن القول إن الهوية الدينية من شأنها أن تدعم مختلف انتماءات الفرد وتقويها.

ثانياً - الوظائف السلبية

أ- على مستوى الفرد

١- تتسبب بعض المشاعر الدينية في أن يطور الفرد درجة عالية من الرضا عن وضعه وحالته. إذا كان فقيراً مثلاً من حيث الدخل أو المعرفة فقد يغالي في ترديد عبارة (هذا ما قسمه ربي لي) بحيث تنحصر درجة طموحه في مستوى متدن، ويتقاعس عن الاجتهاد وبذل الجهد لتغيير حالته، ومن هنا جاءت مقولة (الدين أفيون الشعوب)؛ فكأن الدين يعمل مخدراً ليبقى الفرد في حالة استرخاء دائمة.

٢- التشبث بقوة ببعض الأفكار الدينية يقود إلى تكاسل الفرد وارتفاع درجة إهماله متطلبات الحياة الدنيا؛ فمثلاً التشبث بفكرة أن الآخرة هي دار القرار وهي الهدف الأسمى، وأن الدنيا فانية وزائلة وغير مفيدة، قد يقود إلى حالة من الزهد في الدنيا، تصل في بعض الأحيان إلى ترك العمل والمثابرة، والاكتفاء بالمحافظة على تأدية الطقوس الدينية والتماهي معها.

ب- على مستوى المجتمع

١- المجتمعات التي تركن نسبة من أفرادها إلى الكسل والزهد في الحياة مجتمعات لا تتقدم، ومهددة باستمرار

التخلف وانتشار الفقر؛ فبدلاً من أن يشارك الجميع في عملية الإنتاج تقوم بها نسبة وتعيش البقية عالة على المجتمع. مثل هذه المجتمعات لن تقوى على الاستمرار في وحدة مستقلة وتقع فريسة سهلة لسيطرة الآخر.

٢- إذا انتشرت ثقافة تغييب العقل والكسل والاسترخاء والرضا بالأمر الواقع فإن ذلك يحرم المجتمع من جميع أشكال الحركات الاجتماعية والانتفاضات، التي لها دور مهم للتغيير وللتطور والتقدم.

٣- أدت حالات تقديس النص الديني والنظر إليه على أنه الحقيقة الوحيدة خلال حقب زمنية إلى الوقوف في وجه التقدم المعرفي والعلمي. ومن المفيد التنبيه إلى أن العيب ليس في النصوص الدينية نفسها، لكن في الكيفية التي فسر بها رجال الدين هذه النصوص، ثم تمكنهم من فرض تفسيراتهم؛ لما تمتعوا به من مكانة اجتماعية عالية، ومقدرة على تخويف بقية أفراد المجتمع من مغبة عصيان أوامرهم. ويزخر التاريخ بالحالات التي عانى فيها مفكرون وباحثون حاولوا إعمال العقل في البحث عن الحقيقة خارج محيط الدين. والغريب أنه حتى في حالة الدين الذي يحض تابعيه على البحث وطلب العلم في أي مكان ومن أي مصدر، أدت حالة التدهور الثقافي إلى سيادة ثقافة الذهنية الخرافية.

٤- مجتمعات الوقت الحاضر - من حيث التركيبات الفئوية - أنواع؛ بعضها يمكن أن يصنف على أنه مجتمعات متجانسة والبعض الآخر على أنه مجتمعات متعددة الخلفيات. وهذه الخلفيات أنواع، منها الإثنية واللغوية والثقافية والدينية وهكذا. وفي هذا النوع من المجتمعات، الذي بدأ يتكاثر عدداً في العصور الأخيرة، قد يقود الولاء الديني القوي إلى التفكك والتشرذم، وحتى إلى الحروب الأهلية، كما قد يؤدي الانقسام داخل الدين الواحد إلى مذاهب إلى النتيجة المشار إليها آنفاً إذا ما قوي شعور الانتماء والولاء الطائفي بحيث يتجاوز بقية الانتماءات والولاءات. ساهم مثل هذا الوضع في ظهور حالات التطرف الديني في أكثر من دين، وفي أكثر من مجتمع، وخلال أكثر من حقبة تاريخية.

لابد من التأكيد على أن مجتمعات كثيرة عرفت ظهور جماعات وجمعيات وحركات ثم أحزاب اتخذت أسماء ذات صبغة دينية. لم يقتصر مثل هذه التنظيمات على دين دون آخر، ولا على فترة دون أخرى، لكن عندما يأتي الحديث خلال العقود الأخيرة عن هذه التنظيمات تلصق بالدين الإسلامي. لكن، لو سلطنا الضوء على الحقبة الزمنية التي تجمع بين القرنين التاسع عشر والعشرين فقط لتبين أن هذه

ظهرت في مختلف الأديان، وخصوصاً الأديان الرئيسة اليهودية والمسيحية والإسلام.

نشطت خلال هذه المدة جماعات في داخل الدين المسيحي بتياريه الرئيسيين الكاثوليكي والبروتستانتي والتفريعات الأخرى اتخذت تسميات دينية. تأسست بعض هذه الجماعات في داخل المؤسسات التعليمية وفي الأحياء السكنية، ثم تمأسس بعضها فيما بعد على شكل جمعيات اكتسبت صبغة رسمية من حيث اتباعها لسلسلة من الإجراءات تبدأ بتقديم الطلب للسلطات الرسمية بأخذ الإذن بالتسمية، ومزاولة النشاط بشكل رسمي، إلى تأسيس مركز ثم فروع ثم برامج تتضمن أنشطة محددة، وقد شملت إجراءات المأسسة تكوين أحزاب.

وقع جانب كبير من البلاد التي انتشر فيها الإسلام خلال هذه الحقبة الزمنية التي حددناها تحت الاستعمار الأوربي عندما تقاسمت ثمان دول أوربية أغلبية بلدان العالم. قلد أعضاء هذه المجتمعات المستعمرة المستعمرين في أثناء الاستعمار وبعد زوال الاستعمار في كثير من الأشياء، من بينها ما يتصل بالملبس والمأكل وأسلوب الحياة، ومنها ما يتصل بالتنظيمات والمؤسسات بمختلف أنواعها؛ من اجتماعية وسياسية واقتصادية وترفيهية وغيرها، لذلك ظهرت

في بعض البلاد التي فيها الدين الإسلامي دين الأغلبية جمعيات الشبان المسلمين وجمعيات الشابات المسلمات وكذلك الأحزاب الإسلامية.

حصلت البلاد التي بها الإسلام دين الأغلبية، أو دين الجميع على استقلالها السياسي، ويمكن القول إن أغلبيتها استقلت خلال النصف الثاني من القرن العشرين. عرفت معظم هذه المجتمعات خلال مرحلة الاستعمار ظهور الجماعات والحركات التي اتخذت أسماء ذات دلالات دينية، وقد دخلت مع غيرها من مؤسسات المجتمع الأهلي أو المدني في صراع ضد الاستعمار بهدف الحصول على الاستقلال. لم تدخل هذه التنظيمات خلال النضال من أجل الاستقلال في صراعات داخلية، لكن بمجرد خروج المستعمر طفت الخلافات الفكرية بينها على السطح، ودخلت في صراعات بعضها خفيف والبعض الآخر قوي ومدمر.

نجح المستعمر الأوربي في غرس كثير من قيمه بين أبناء البلد الذي استعمره، وخصوصاً ما يتعلق بسلوك الاستهلاك، وما يتصل بأساليب الحياة. لكن المستعمر أخفق في حالات كثيرة في نقل تلك القيم التي لها علاقة بأسلوب الحكم والنظام السياسي؛ أي ما يتعلق بالديمقراطية. صحيح أن

أغلب البلدان التي حصلت على الاستقلال بدأت حقبة الاستقلال بنظام سياسي يشابه الموجود في الغرب، لكن لم تلبث الأمور أن تغيرت وتحولت إلى أنظمة دكتاتورية أغلبها عسكرية. أدت حالة غياب لغة الحوار وعوامل أخرى يعود بعضها إلى الخارج، ويعود البعض الآخر إلى الداخل، إلى ظهور كثير من حالات التململ الاجتماعي الذي قاد في أحيان كثيرة إلى ظهور الجماعات والحركات السرية، أخذ بعضها ألقاباً دينية، وأدى هذا الوضع إلى ظهور جماعات دينية متطرفة.

كما نجحت بعض الحركات في الحصول على تنازلات من السلطة فسمحت لها بتكوين أحزاب سياسية وذات تسميات دينية. دخلت هذه في اللعبة السياسية عن طريق الانتخابات، وحققت نجاحات محدودة فشاركت في الحكم، وبلغت هذه النجاحات في أحيان أخرى درجات رأت فيها السلطة تهديداً لهيبتها فألغت الانتخابات، وألغت الأحزاب وأدخلت زعاماتها السجن.

فإلى جانب الجماعات التي اتخذت أسماء وشعارات ذات صبغة إسلامية ووصفت بالتطرف، ظهرت حركات وتنظيمات أخرى عملت الشيء نفسه ولكنها هدفت إلى المشاركة في تنظيم الحياة بعيداً عن العنف، فقد انتشر في

عدد من الأقطار ما صار يعرف بالحركات أو التنظيمات وأحياناً بالأحزاب الدينية، نجح بعضها في تنظيم جانب هام من حياة أبناء المجتمع أو فئة من أبناء المجتمع، بل نجح في اكتساب موقع متميز في ساحة الحياة الاجتماعية. ولعل فيما قامت وتقوم به جماعة حزب الله في لبنان ما يميزها عن غيرها من الجماعات التي اتخذت لنفسها أسماء لها دلالات دينية؛ فبداية تميزها تبدو في اختيار الاسم؛ فالله هو الله في مختلف الديانات من حيث صفاته وعلاقته بالبشر، وعليه يمكن أن ينتسب لهذه الجماعة أي شخص بغض النظر عن دينه، من الناحية النظرية على الأقل. كما تتميز عن غيرها في أنها لم تكفر من اختلف معها، ولم تمارس العنف ضد أبناء المجتمع الذي هي فيه، واستخدمت السلاح في مقاومة الآخر المعتدي على مجتمعها. ولا شك أن الجولة الحربية التي خاضتها أخيراً ضد إسرائيل رفع من رصيدها الاجتماعي في المنطقة وفي خارجها، حين نجحت في الصمود مدة طويلة أمام أكبر قوة عسكرية في المنطقة، ويرجع جزء من هذا النجاح إلى حسن التنظيم المؤسسي، وتوظيف أحدث أساليب المعرفة العلمية وتوظيفاتها التقانية.

الدين و العلمانية و التحديث

عرف الإنسان الدين في وقت مبكر من بناء نمط من أنماط الاستقرار. وعندما بنى القرية ومن بعدُ المدينة اتخذت المعابد مكانة هامة من حيث موقعها في داخل نمط الاستقرار، ومن حيث طريقة بنائها، وزخرفتها، والتماثيل المرتبطة بها. كان هذا شأن الديانات القديمة، لذلك بقيت المعابد أهم شاهد على حضارات سادت ثم بادت. ارتبط التطور المعرفي بالحضارة، فالحضارة لم تنشأ من فراغ، بل كان للفكر وللعلم فيها مكانة عالية، لكن تميز الدين على العلم في أن الدين يأتي كاملاً؛ عقائد وقيماً وأنشطة، يأتي كاملاً من حيث اعتماده على ما جاء به المبشر بالدين من تعاليم وعبارات سجلها المحيطون به في الذاكرة، ثم سجلت مكتوبة فيما بعد، ويأتي كاملاً من حيث أن مادته عبارة عن حقائق مطلقة، وعلى التابعين الإيمان بها كلها، والابتعاد عن التشكيك في أي جزء منها، ويأتي كاملاً بمعنى أنه لا يقبل الزيادة أو التعديل. لكن المعرفة العلمية بدأت بسيطة وأخذت تنمو، وكان النمو بطيئاً، بل كان يتعرقل ويتوقف، ويستمر

التوقف لقرون، لذلك اضطر المفسرون للدين لتقديم أجوبة لأسئلة كبيرة ورئيسة أخذت شكل التفسيرات الغيبية، والبحث عن السبب في قوى خفية وغير مرئية. وجد أفراد حاولوا استخدام العقل لتفسير ما يشاهد من أحداث وظواهر في كل عصر وفي كل مجتمع، لكن كلما عجز المرء عن إيجاد تفسير عقلي رجع إلى الموروث الثقافي يستخرج منه ما تيسر له، وهنا يكون للمعتقد الديني دور هام وحاسم.

في كل مجتمع ظهر فيه دين تخصص أفراد في تفسير النصوص وشرح الفروض والطقوس وحث الناس على الطاعة، قام هؤلاء بدور المعلم. وفي المناطق القروية التي تخلو من مظاهر التعليم، وخلال عصور الانحطاط الفكري كان رجال الدين هم وحدهم المتعلمون والعارفون، لذلك قام رجل الدين في القرية مهما تدنت كمية معرفته بدور المرشد والعارف، يرجع إليه المواطنون في تلك البقعة من الأرض في كل أمر، يقدم النصيحة المبنية على التجربة، كما يقدم الفتاوى المرتبطة بثوابت الدين. قد تكون النصيحة مفيدة وفي محلها لاعتمادها على مخزون من التجارب والأحداث، لكن الشيء نفسه قد لا يتوافر في حالة الفتوى. ولأن الحالة الأخيرة مرتبطة بالدين فتحاط بهالة من القدسية، ويصبح الامتثال لها في حكم الأمر النهائي. حدث الشيء

نفسه في المجتمعات التي مرت بمراحل انحطاط، وهي مراحل لم ينج منها مجتمع، بما في ذلك تلك التي بنت حضارات ذات شأن كبير. لذلك حصل رجال الدين على احترام المحيطين بهم، ومن ثم خصصت لهم مكانة اجتماعية عالية نسبياً. وشيئاً فشيئاً أصبحت المؤسسة الدينية إحدى أهم مؤسسات المجتمع التي تحدد حالة التوازن الاجتماعي فيه.

تمثل حالة أوربة المسيحية في القرون الوسطى نموذجاً واضحاً للدور الذي قامت به الكنيسة خلال سنوات بحيث أصبحت إحدى أهم مؤسسات المجتمع. وكما هو معروف انقسم المجتمع الأوربي - خلال العصور الوسطى - إلى فئتين رئيسيتين: فئة العاملين في الأرض بهدف توفير الغذاء والكساء وما يتعلق بهما من أعمال خدمية، وفئة الحكام والنبلاء التي تهتم بالانخراط في أنشطة بهدف الدفاع عن وطن، أو ضم أراضٍ إلى وطن، ويملك أعضاء هذه الفئة الأرض ومن يعيش فوقها من بشر وحيوانات. الفروق بين هاتين الفئتين أو الطبقتين واضحة وشاسعة ومقننة، رجال الحكم والنبلاء يملكون إقطاعيات كبيرة، ويتمتعون بمستوى معيشة عالٍ، أما الفلاحون ومن في حكمهم فيعملون في الأرض أو في الخدمات المتوافرة آنذاك، ولا يملكون أرضاً ولا مدخرات ذات بال، مهمتهم خدمة السيد الذي يعيشون

في إقطاعياته، متكيفين مع حياة الكفاف. ولكي يرضى أعضاء كل فئة بما وجدت فيه نفسها من حال، كان لا بد من سلطة تسوغ هذا الوضع، وتضفي عليه الشرعية. قامت المؤسسة الدينية (الكنيسة) بهذا الدور بعد أن رضيت لنفسها بحالة التراتبية الطبقية، لذلك انقسم رجال الدين إلى طبقتين متباينتين؛ تضم العليا كبار الكهنة الذين يتمتعون بالسلطة والثروة، وأما السفلى فهي بقية أعضاء الكنيسة الذين تخصصوا في القيام بمختلف الأعمال الخدمية. لابد من الإشارة إلى أن المؤسسة الدينية وجدت في مرحلة تاريخية سابقة لظهور المجتمع الإقطاعي الأوربي، فهي أقدم من النظام الاجتماعي الذي ساد أوربة خلال القرون الوسطى. وقامت خلال كل عصر - إلى جانب مهامها العادية - بدور يتناسب وطبيعة المرحلة. تولت المؤسسة الدينية منذ البداية مهمة تنظيم بعض أنشطة الفرد وإرشاده، ولكي تضمن مكانة مرموقة اضطرت في بعض الأحيان إلى موالاة السلطة السياسية، لذلك دخلت أيام سيادة الإقطاع في علاقات خاصة مع السلطة أو الطبقة العليا. وجدت الكنيسة في تعاونها مع السلطة تضخيماً لمكاسبها، ووجدت السلطة أن الكنيسة يمكن أن تؤدي إلى جانب مهامها التقليدية مهام ذات قيمة عالية تتمثل في إقناع أعضاء الطبقة العاملة بتقبل دورهم بنصيبهم الدنيوي، وأن التفاني في العمل سيعود

عليهم بالخير إذ يحصلون على رضا الإله مما سيضمن حياة سعيدة في الآخرة. نعمت بعض أجزاء أوربة خلال العصور الوسطى بدرجة من الاستقرار ساعدت على تنشيط التجارة بين أجزاء أوربة وبينها وبين بقية المناطق المجاورة في قارتي آسية وإفريقية. ساهم هذا النشاط في ظهور جماعات جديدة تخصصت في مجالات عمل بعضها عرفها الإنسان في عصور سابقة، والبعض الآخر جديد قديم وأخرى من أصحاب الثروة. كما ساهم هذا النشاط في نمو المدن وتكاثر أعداد سكانها، وظهور مجالات عمل جديدة شملت المهنيين والفنيين والمثقفين.. إلخ. نجح بعض هذه الجماعات - وخصوصاً الذين اشتغلوا بالتجارة - في تكوين ثروات مكنتها من تكوين طبقة اجتماعية جديدة، دخلت في صراع مع الفئات التقليدية على السلطة. ثم جاء زمن ضعفت فيه طبقة الإقطاعيين تاركة المجال لطبقات اجتماعية، عليا ومتوسطة وسفلى. لم تخسر الكنيسة دورها في النظام الاجتماعي الجديد بل حافظت على مركزها المتميز. ساهمت في هذا عوامل أهمها: التاريخ الطويل نسبياً، واستمرار الدور التقليدي في توجيه وإرشاد الناس، والمكانة الثقافية لرجال الدين حيث كونوا - خلال حقبة العصور الوسطى - أغلبية الطبقة المثقفة. لذلك حافظت الكنيسة على مكانتها المتميزة، وتسابقت طبقات المجتمع لكسب ودها، والدخول معها في

تحالفات. وباختلاف الأنظمة السياسية دخلت المؤسسة الدينية في تحالفات مع مختلف الطبقات الاجتماعية، انحازت في بعض المجتمعات للطبقات الفقيرة، لكنها انحازت في مجتمعات أخرى إلى جانب السلطة، وما زال هذا هو الحال في أكثر من مجتمع معاصر.

وكما ذكر في مكان سابق، ظهر فلاسفة ومفكرون خلال حقب زمنية مختلفة، ونتيجة مباشرة لتوظيف العقل لتفسير ما يشاهده الفرد؛ فقد دخل بعضهم في حروب مع السلطة الدينية التي كانت تنتصر في نهاية هذه الصدامات.

بنيت حضارات وازدهرت، ثم زالت إلى أن جاء دور الحضارة الإسلامية التي قامت على احترام العقل والعلم، رجع رجال العلم فيها إلى المعارف التي طورها أصحاب الحضارات السابقة في الشرق وفي الغرب فنشطت حركة الترجمة، وسجل المسلمون تقدماً ملحوظاً في مجالات معرفية متعددة، لكن هذه الحضارة انتكست هي الأخرى بسبب الحروب الداخلية والخارجية، ودخل المسلمون عصور الجهل والتخلف، ولكن قبل أن تنطفئ شعلة الحضارة الإسلامية بالكامل كانت مراكز تعليم غربية قد تعرفت بعض ما أنتجه المسلمون، وقرروا الاستمرار على الدرب.

ترجع بعض أسباب تقهقر الحضارة الإسلامية إلى الانتصارات العسكرية التي سجلها الغرب الذي فرض فيما بعد سيطرته على جزء كبير من الأرض التي بنى المسلمون فوقها حضارتهم، وساعد هذا الوضع الغرب على الاستفادة من معظم ما حققه العرب من تقدم فكري وثقافي وعلمي. ومع أن من بين أهم خصائص المعرفة أنها تراكمية، وأن حركة التراكم ساهمت فيها شعوب كثيرة، يلاحظ ومنذ ما يعرف بعصر التنوير أن الغرب أخذ الشعلة، وتقدم على بقية الشعوب في مجال البحث العلمي، وتراكم المعرفة العلمية. وبعد حين أصبح على أبناء أي مجتمع أن يقلدوا الغرب، ويقتفوا آثارهم لاكتساب أي قدر من المعرفة العلمية.

لكن اقتفاء هذه الآثار ليس بالأمر الهين؛ لأن التجربة الغربية في هذا المضمار قد لا يسهل استنساخها في بقية المجتمعات؛ فمثلاً من بين أهم الأسباب التي قادت إلى ما يشاهد من تطور علمي في الغرب تلك النهضة الفكرية التي خرجت عن سيطرة المؤسسة الدينية. هذه النهضة الفكرية شارك فيها أبناء أكثر من مجتمع غربي من الذين اشتركوا في الاتفاق على مبدأ عام يتمثل في القبول بقدرة العقل على التوصل إلى معرفة تصف وتفسر وتفهم ما يجري في الطبيعة.

وقبل الوصول إلى هذا الاتفاق نجحوا في تحجيم سلطة المؤسسة الدينية لتقتصر مهامها على متابعة الجانب الأخلاقي للأفراد، والعناية به، وذلك بالتأكيد على القيم التي تضمن تصالح الفرد مع نفسه وتصالحه مع الآخرين، وبعبارة أخرى الاهتمام بكل ما من شأنه أن يؤدي إلى ضمان السلم الاجتماعي، وألا تتدخل المؤسسة الدينية في تلك القيم الجديدة التي تتطلبها طبيعة المرحلة التي تمر بها المجتمعات، وخصوصاً ما يتعلق بعدد من الحريات المتعلقة بالفرد مثل: حرية التفكير، وحرية التعبير، وحرية اتخاذ القرارات الخاصة به شريطة ألا تتسبب في إلحاق ضرر بآخرين.

قادت هذه الحرية إلى إطلاق العنان للعقل لكي يفكر في كل ما يعن له، ويشكك في كل ما يقابله، ويخضع كل فرض يعن له للفحص، ومقارنته بالوقائع كما تبدو على مستوى الواقع، ويعلن عن كل ما يتوصل إليه. وبذا نشطت نهضة فكرية وعلمية، وقادت فيما بعد إلى ما يشاهد من إنجازات علمية ضخمة. لكن أدت المغالاة في التأكيد على هذه الحريات فيما بعد إلى أوضاع وحالات وظواهر تتعارض مع أهم المبادئ الأخلاقية للدين، ووجدت المؤسسة الدينية نفسها في موقف حرج عندما تضطر إلى غضّ الطرف

عما يتعارض مع الدين من ظواهر شاذة حتى لا تتهم بأنها ضد الحرية الفردية.

تغليب العقل على النقل قاد بالضرورة إلى انتشار العلمانية وسيطرتها على نمط التفكير الذي قاد إلى التقدم العلمي الذي تشاهد توظيفاته في كل مجال. ظهرت أصوات في العالم الإسلامي أرادت مجاراة الغرب المسيحي في هذا الشأن (حسين، ١٩٣٨). لكن منذ البداية صادف توظيف مفهوم العلمانية وما يتفرع منه وما يرتبط به من مفاهيم، معارضةً شديدة من قبل كثيرين.

يرجع تاريخ استعمال المفهوم في المجتمع الحديث إلى مطلع القرن العشرين (المسيري والعظمة، ٢٠٠٠: ١٢)، ومع هذا التاريخ الطويل للمفهوم لا يزال الحديث حوله كثيراً، والاختلاف حول معناه وتوظيفاته لا يزال يحظى بوجهات نظر مختلفة، وهذه ليست حالة خاصة بهذا المفهوم؛ إذ لا تحظى كثير من المفاهيم الرئيسة في العلوم الاجتماعية باتفاق كامل بين جميع الموظفين لها. كثيرون من مستخدمي مفهوم العلمانية يوظفونه بمعنى أن المعايير الرئيسة المستخدمة لوصف وتقييم مختلف الأنشطة الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية مصدرها المجتمع والواقع، وهذا يعني أن المعايير والقيم الدينية ليست هي المصدر الوحيد،

لكن لا يعني هذا أن تكون المعايير والقيم المرتبطة بالواقع المعاش لا تتأثر بالمعايير وبالقيم الدينية.

يستخدم البعض المفهوم بكسر حرف العين، ويستخدمه آخرون بنصبه، ونتفق في هذا الشأن مع عزيز العظمة في أن مثل هذا التمييز لا يقود إلى معنيين مختلفين (المسيري والعظمة، ٢٠٠٠: ١٥٧)؛ فسواء أكان الاشتقاق من العلم أو من العالم فإن المعنى المقصود هو إطلاق العنان للعقل للتفكر فيما حوله وعدم تقييد حريته بأحكام سابقة. لكن البعض نظر إلى المفهوم على أنه مشتق من العالم وأنه يعني أن العالم مكتفٍ بنفسه وليس في حاجة إلى قوة خارجية تتسبب فيما يجري فيه، وبذلك وضع مفهوم العلمانية في مقابلة الدين، إما العلمانية وإما الدين. بعبارة أخرى؛ الذي يأخذ بالعلمانية خارج عن الدين وكافر. ومراجعة لتاريخ تطور المفهوم تبين أن الإطار الفكري الذي قاد لتطور هذا المفهوم في الغرب فصل بين الكنيسة والدولة والمجتمع.

سيطرت الكنيسة خلال حقبة من الزمن على مختلف مظاهر الحياة في المجتمع، وعندما أصبح رجال الدين المصدر الوحيد للمعرفة فسرت جميع الظواهر - بما فيها البسيطة - بالرجوع للتراث الديني، وبذلك حددت مسارات الفكر وحصرت في حدود ما كان يجيزه أو يحرمه رجال

الدين. أما الحركة الفكرية التي انتشرت في أوربة وعرفت بعصر التنوير فكانت ثورة على هذا الوضع، وعندما وجد مفكرو تلك المرحلة من يستمع إليهم كان من الضروري بناء نظام يتحرر من سلطة الكنيسة، إلا أن هذا في النهاية لا يعني بالضرورة أن تكون العلمانية والدين على طرفي نقيض؛ فالأخذ بالمبادئ التي تقوم عليها العلمانية والمعتمدة أساساً على التشكيك فيما يشاهد ويسمع ويقرأ لا يقود بالضرورة إلى رفض الدين، قد يقود إلى رفض التفسيرات غير المنطقية للدين، وبعبارة أخرى رفض بعض ما تضمنه الفكر الديني، فإذا ثبت أن الأرض هي التي تدور حول الشمس فإن الذي يقبل بهذا ليس بكافر، لأن مفسري الدين المسيحي خلال حقبة زمنية قالوا بأن العكس هو الحقيقة.

يقول البعض إن حركة التنوير التي قادت إلى تقديم العقل على النقل، وما نتج عن هذا الوضع من تيارات فكرية احتاجت إلى قرون قبل أن تنتشر في أوربة، وتصبح جزءاً من التراث الفكري الأوربي أو الغربي؛ بقيت محصورة في داخل القارة أو بين الذين هاجروا منها إلى ما سمي خلال حقبة زمنية بالعالم الجديد. لكن عندما جاء بعض هذا الفكر إلى المنطقة التي يسود فيها الدين الإسلامي نظر إليه البعض على أنه فكر مستورد أو وافد، وتعامل معه المجتمع الثقافي بأنه

مخالف للفكر المحلي الأصيل. وبما أن الأصالة صفة سامية ومرغوبة، فإن الصفة أو الفكرة المضادة تحاط بسمعة سيئة، وتضاف إليها مختلف الصفات السلبية، ويواجه المفكر أو الباحث الذي يأخذ بهذه المفاهيم كماً هائلاً من الهجوم والنقد، بلغت في بعض الحالات مستوى طرد المفكر من مجتمعه، أو اضطراره إلى الهجرة القسرية.

لا شك أن فلاسفة ما أصبح يعرف بعصر التنوير كلهم أوربيون، لكن لا بد من التأكيد على أن النشاط الفكري المكون لعصر التنوير لم ينطلق من فراغ، وأن فلاسفة ذلك العصر استفادوا من التراكم المعرفي الذي شارك فيه عدد كبير من فلاسفة ومفكري شعوب كثيرة على مدى قرون كثيرة، ساهم أغلبية هؤلاء في تطوير حضارات يشار إليها بالقديمة. ولأن ما سيأتي نقاشه يتعلق بالمنطقة التي يسودها الدين الإسلامي، فسنكتفي بالإشارة إلى فلاسفة المسلمين ومفكريهم وعلمائهم فقط. لقد تمكن هؤلاء من اكتشاف وتطوير نظريات وظفت نتائجها في عدد من المجالات التي لها علاقة بالحياة اليومية للإنسان. دخلت هذه الاكتشافات والنظريات ضمن الموروث المعرفي الذي كان وراء النهضة الفكرية التي عرفت بعصر التنوير (عريبي، ١٩٨٨).

عندما طور المسلمون حضارة خلال الزمن الذي كانت فيه أوربة تعيش ما يشار إليه بعصور الظلام، لم تُثَر قضية تعارض استعمال العقل مع الدين. ولأن الدين الإسلامي لم يعرف رهبنة، وخلال سنواته الأولى لم تدَّعِ طائفة أو فئة ذات فكر ديني بأنها وحدها المسيطرة، ظهرت الفرق الدينية نتيجة اختلافات سياسية منذ عهد خليفة المسلمين الرابع، لكن لم تتمكن واحدة من فرض سيطرتها على الجميع. عندئذ شعر كل مسلم أنه يحق له تفسير النصوص بحسب فهمه واجتهاداته.

تسابق البعض إلى بناء فكر ديني أخذ شكل مذهب، أو تيار، وظهرت خلافات واختلافات، لكنها لم تبلغ حد تكفير المختلف معه في التفسير. كما لم يتعرض من اجتهد في تفسير النصوص إلى النشاط العقلي المؤدي إلى تطور المعرفة العلمية، لكن بمرور الزمن ظهرت فرق انتقدت فرقاً أخرى بتهمة تفضيل العقل على النقل، وحدثت في تاريخ المسلمين أحداث انتصرت خلالها - إن صح التعبير - الجماعات المحافظة، واضطهدت الجماعات التي نادت بحرية العقل. ثم تغير الزمن؛ وخرجت أوربة من عصور الظلام، ودخل المسلمون بدلاً منهم في عصر ظلام دام عصوراً طويلة.

عندما بدأ الحديث في العصر الحديث عن العقل وعن العلمانية، كان المسلمون لا تزال أغلبيتهم في عصور الظلام، لذلك قوبل هذا النشاط الفكري بكثير من النقد والهجوم عليه، وعلى الداعين له، لكن لم تجد النخب السياسية في العالم الإسلامي مشكلة في استعارة النظام السياسي المطبق في بقية أنحاء العالم المبني على العلمانية، لكن هذه النخب اتخذت قرارين رئيسيين كان لهما دور في تخفيف حدة المعارضة: **أولاً**- جعلت للدين مكانة وسط النظام السياسي بأن جعلته من مصادر التشريع، **وثانياً**- تنفيذ برامج تنموية بهدف تحديث المحيط.

جَعْلُ الدين مصدراً أساسياً للتشريع أو من مصادر التشريع أكسب النظام السياسي تعاطف أغلبية أعضاء المجتمع. أما برامج التحديث المادي فأكسبت النظم السياسية احترام أعضاء المجتمع وتأييدهم. أخذت هذه النظم السياسية على نفسها تقليد الآخر في تنفيذ برامج تحديثية، خصوصاً تلك التي أصبحت مطلباً عالمياً مثل التعليم الحديث، والإعلام والثقافة، والعلاج الطبي، والسكن الحديث، ومتطلبات البنية التحتية، وهكذا.

أقبل المسلمون على برامج التحديث بنهم شديد، وخصوصاً التعليم الحديث المبني على احترام العلم

ومنجزاته التطبيقية. لكن الأصوات المعارضة لم تختف بالكامل، لذلك لا تزال تُسمع أصوات تطالب بالاكتفاء بتطبيق الشريعة وإقامة الدولة الإسلامية، وعدم الاكتفاء بدولة مدنية ذات مرجعية إسلامية. وتخصصت جماعات أخرى بمتابعة انتقاد الجماعات التحديثية ومن يصنفون على أنهم علمانيون. يرى بعض هؤلاء أن بعض الاكتشافات العلمية تشكل تهديداً لبعض ثوابت الدين، لذلك انبرى باحثاً عن نصوص تبين أن لكل اكتشاف علمي إشارة في القرآن، واجتهد في تفسير النصوص للبرهنة على أسبقيتها للاكتشافات العلمية بما في ذلك ما يتعلق بالخريطة الجينية والاستنساخ. ومع أن هذا النشاط قد قاد - في رأي بعض الباحثين - إلى إيجاد شيء من التوازن بين الدين والإنجازات العلمية (Geertz, 1968: 105)، إلا أن هذه الاستراتيجية قد تكون محفوفة بكثير من المخاطر المستقبلية. لكن بعد إخفاق مخططات التنمية في تحقيق كثير من الأهداف المعلنة، وظهور عوامل أخرى تتعلق بالعولمة التي أصبحت تسود العالم، حدثت ردات فعل تحت عناوين تستميل عواطف الأغلبية؛ مثل الصحوة الدينية والعودة إلى الأصول أو الجذور. ومع أن هذه لا تعني التطرف إلا أن المجال انفتح أمام ظهور الحركات المتطرفة التي تصل إلى حد توجيه تهم التكفير، والمطالبة بتطبيق الشريعة. لم يتكيف

هؤلاء مع الظواهر الجديدة التي جاءت مع برامج التحديث، وأصبحت عملية المواءمة بين الماضي والحاضر تثير كثيراً من الاضطرابات وحالات عدم الرضا. فهل ارتكبت أخطاء كبيرة في درب السير بالمجتمع في طريق التحديث؟ وهل كان لابد من تطوير نموذج خاص يوظف كثيراً من الخصائص الثقافية لكل منطقة؟

ليس الحديث عن التحديث وعن الحداثة بالشيء الجديد، فلمثل هذا الحديث تاريخ طويل، قاد إلى تراكم معرفي لأدبيات معروفة في جميع فروع العلوم الاجتماعية، أدبيات أدى تراكمها إلى تطوير نظريات تكاثرت على مر السنين، لتصبح مدرسة متميزة، ترصد وتصف وتفسر التغير الاجتماعي، وما يرتبط به من ظواهر فرعية.

يمثل التحديث ظاهرة تمثل حركة المجتمع على مسار محدد تمكن ملاحظته، ويمكن قياسه، مسار له خصائص ومؤشرات تتعلق بالبيئة المحيطة بالفرد، أو تتعلق بشخصيته. فالتحديث إذن يمكن التفكير فيه إما على المستوى الواسع، أو المستوى الكبير أي مستوى المجتمع، وإما على المستوى الضيق، أو المستوى الصغير، أي على مستوى الشخصية، التي يمكن إضافة صفة الحداثة لها بحسب طبيعة السلوك. تشمل المؤشرات الإمبيريقية للتحديث على مستوى المجتمع،

توفر المباني الحديثة على شكل وحدات سكنية وأسواق وخدمات، وكذلك الطرق ووسائل اتصال مختلفة، وأيضاً المؤسسات العامة، مثل المدارس والمستشفيات، والمعسكرات وأجهزة المحافظة على الأمن، والمؤسسات الاجتماعية، ودرجة تركز هذه المؤسسات في مراكز حضرية تجتذب نحوها سكان الريف. كما تشمل وسائل ومعدات الإنتاج مثل الورش والمصانع بأنواعها، والدور الذي تضطلع به في تغيير نمط العمل السائد، وكذلك السلع الاستهلاكية المتنوعة، ومختلف مكونات المكتب والمنزل الحديث. في حين تتمحور مؤشرات التحديث على مستوى الشخصية، حول خصائص تتصل بالمقدرة على التكيف مع متطلبات الحياة العصرية، وما يتصل بها من سرعة في التغيير والتجديد، وما يتعلق بهذا من كيفية التعامل مع نسق القيم الجديدة، وما ينتج من مواقف واتجاهات.

للتحديث مراحل، وسلم له درجات كثيرة، يمكن أن يكون المجتمع أو الشخصية خلال أي مرحلة زمنية على درجة معينة من درجاته، وهي درجة غير ثابتة، وكما هي قابلة للزيادة والارتفاع، قابلة في الوقت نفسه للنقص والانخفاض.

ونزعم أن ظاهرة التحديث على مستوى المجتمع، يمكن أن تبدأ عندما تتوافر الظروف المناسبة لانطلاقها. تكون

البداية بسبب فعل فاعل، قد يكون الفاعل شخصاً يحتل مكانة اجتماعية، كأن يكون زعيماً سياسياً مثلاً، أو قائداً عسكرياً، أو مصلحاً اجتماعياً، أو مغامراً اقتصادياً؛ شخصاً له رؤيته للمستقبل تختلف عما هو سائد، وله رغبة في قيادة حركة للتغيير. وقد يكون الفاعل أكثر من شخص، جماعة مثلاً، أو جماعات متعددة. قد تكون الجماعة أو الجماعات غير رسمية، من بين تلك التي تنتمي إلى المجتمع المدني، وقد تكون الجماعة، أو الجماعات، رسمية الطابع من بين تلك التي تنتمي إلى مؤسسات حكومية. قد تكون الجماعة داخلية أي تنتمي للمجتمع نفسه، وقد تكون خارجية تنتمي إلى مجتمع آخر. وقد يتبع الفرد أو الجماعة المؤثرة أسلوب الإقناع، وما يتصل به من شواهد على أهمية التغيير وفوائده، وقد يلجأ الفرد أو الجماعة إلى أسلوب القوة، لفرض الرأي، والفلسفة، والتغيير.

ونزعم أيضاً أن كل متسبب في انطلاقة مسيرة المجتمع، يقود إلى نوع معين من أنواع التحديث؛ فخصائص التحديث تتلون بخصائص المتسبب فيه، وبذلك يمكن التمييز بين أنواع من التحديث. كما أن المسيرة التي يتخذها التحديث هي الأخرى تتأثر من حيث الاتجاه، ودرجات التذبذب، بمعنى درجات التواء الخط الذي يمكن رسمه للمسيرة. وبالطبع تنتج

عن هذه الأنواع المختلفة أشكال مختلفة لأي ظاهرة تنشأ بفعل عملية التحديث.

كما نزعم بأن مسيرة تحديث مجتمع واحد، قد تنتج عن أكثر من سبب؛ فالتحديث - وهو متغير تابع - قد يكون نتيجة متغير مستقل واحد كالدولة مثلاً، ولكن قد يكون هذا المتغير متغيراً متداخلاً فيقع موقعه في الوسط، ويكون المتغير السابق في الترتيب الزمني حركة مجتمعية مادية أو غير مادية مثل الثورات، أو زعيماً ملهماً مثلاً، أو مرحلة زمنية ساد فيها نظام سابق، كمراحل الاستعمار مثلاً، وهكذا. ويلاحظ في كثير من المجتمعات، وخصوصاً تلك التي وصفت خلال أي مرحلة زمنية بمجتمعات العالم الثالث، أن أفكار وخصائص فلسفة الرئيس أو القائد أو الحاكم، تترجم إلى قوانين تعلن وتطبق وتحدد أنماط العلاقات بين الأفراد، وتشكل الصورة التي يأخذها المجتمع ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.

ونزعم أيضاً أن أسماء المتغيرات المستقلة أو المتداخلة، قد تتغير خلال مسيرة تحديث المجتمع بتغير الحقب الزمنية.

يتفق كثير من الباحثين على أن مسيرة التحديث بدأت في الغرب، لذلك يوجد من يقول بأن السير في طريق

التحديث يقود إلى النتائج نفسها، بغض النظر عن خلفية السائر ومكان وزمن سيره. وبعبارة أخرى يوجد نموذج واحد للتحديث (Moore, 1963; Inkeles, 1981)، بل يوجد من يصر على أن النموذج الوحيد لتحديث المجتمع ولتحديث الشخصية أو الحداثة، هو النموذج الغربي. ويمثل هذا الموقف بوضوح أبرز رواد مدرسة التحديث (دانيال ليرنر) في دراسته المشهورة (نهاية المجتمع التقليدي) حيث يكتب بوضوح، أن هدف المجتمعات التي درسها في الخمسينيات، وهي بعض مما يعنيه اليوم مصطلح الشرق الأوسط، هو الوصول في تاريخ لاحق إلى حالة المجتمع الأوربي اليوم (Lerner, 1958: 47).

ويربط آخرون ما بين التحديث والتصنيع، بحيث يصبح التصنيع هو المطية التي يقطع بها المجتمع مراحل مختلفة للتحديث ولكنها متماثلة، بحيث يصل كل مجتمع يسلك طريق التصنيع، إلى المراحل نفسها التي وصلت إليها المجتمعات التي سبقته (Bell, 1996: 423 - 436). وقد قبل بهذه الأفكار، وسار على خطوات ليرنر وبيل هذه، عدد كبير من الباحثين في أوربة وأمريكة وفي بقية العالم. وقد يكون في الوضع الذي سارت عليه الكثير من الأقطار، خلال الحقبة التي تلت نهاية الحرب الكونية الثانية، ما يسوغ ملاحظات

هؤلاء الباحثين؛ فقد سادت العالم حالة من الانبهار بالنموذج الغربي، وخصوصاً في جوانبه التقانية والصناعية والاقتصادية، لكن حالة الانبهار هذه ما لبثت جذوتها أن تلاشت، وأصبح بالإمكان التمييز بين نماذج مختلفة؛ مختلفة في الوسيلة، ومختلفة في الخصائص التي أخذت من مكونات المنطقة الجغرافية، وظروف المرحلة التاريخية.

اعتقد البعض أن انتشار الثقافة الليبرالية العلمانية المرتبطة بالثورة العلمية، وبتطبيقاتها التقنية المؤدية للتحديث ستقود في النهاية إلى إزاحة المقدّس، ومن ثم إلى إضعاف الدين بوصفه مرجعية أساسية من مرجعيات التفكير، ومن ثم تهميش الدين في المجتمع. تبنى هذا الرأي بعض من درس الدين من وجهة نظر علم الاجتماع مثل دوركايم، بل إن البعض مثل ماركس وإنجلز ومن سار على خطاهما تنبأ بإحلال العلم محل الدين.

ولكن، ومع ما ذكر في مكان سابق حول المجتمع الغربي وتفوقه في الأخذ بأسباب العلمنة والتحديث، لم تنجح فيه محاولات فصل المؤسسة الدينية عما يجري من تحولات اجتماعية وإقصائها بالكامل، فمع كل ما حدث فإن المؤسسة تقاوم وتظهر بين الحين والآخر، تقاوم العصرنة والعلمنة والتحديث. كما حافظت المجتمعات الغربية على

رموز دينية تظهر بوضوح في عدد من المناسبات بما في ذلك برامج الإعلام، والحملات الانتخابية، وإجراءات تنصيب الرؤساء وكبار المسؤولين. وعليه يمكن القول إن المجتمع الغربي يحتفظ بعوامل لإذكاء كثير من الصراعات الناشئة بسبب التضارب بين تيارات التحديث المادي، وإحلال العلم مكان الدين. كما تدعو وبقوة التيارات الدينية المحافظة إلى المحافظة على ثوابت الحياة الاجتماعية المرتبط أغلبها بالدين. تمكنت بعض هذه التيارات المحافظة من توجيه السياسات الرئيسة في الولايات المتحدة الأمريكية التي تفوقت على جميع مجتمعات العالم علمياً واقتصادياً وعسكرياً، مما يثير تساؤلاً هاماً: هل بإمكان الإنسان التخلص يوماً ما من معتقداته أو أفكاره أو أوهامه؟ وبعبارة أخرى: هل يمكن أن يستبدل بنسق القيم المستمد من الدين والذي نظم الحياة الاجتماعية على مدى قرون نسقاً آخر يتخلص من كل رباط بالدين؟ أي هل يمكن بناء مجتمع من دون دين؟ ويبدو أن التجربة الشيوعية في عدد من أقطار أوربة التي دامت لعقود قبل أن تتهاوى تساعد في تطوير إجابة شافية لهذا السؤال الهام.

التطرف و العنف باسم الدين

الظاهرة الاجتماعية مثل الظاهرة الطبيعية، لا تحدث من فراغ، وإنما بفعل فاعل. ولأن لكل ظاهرة ظروفها، فالفاعل الذي يتسبب في الظاهرة، سواء أكانت طبيعية أم اجتماعية، قد يكون عاملاً (متغيراً) واحداً، وقد يكون أكثر من عامل واحد. والمشاهد بالنسبة إلى الظاهرة الاجتماعية، أنها لا تكون بسبب عامل واحد، ولا تكون العلاقة بين السبب والنتيجة علاقة الخط المستقيم، كما أنها ليست بالضرورة علاقة سببية، وإنما هي، في الغالب، علاقة تلازم بين عدد كبير من المتغيرات. والهدف الأساسي من دراسة الظاهرة هو فهمها، ثم يأتي الهدف التالي مباشرة وهو التحكم فيها وتوجيهها. ومع أن الهدفين مهمان ويتوجه نحوهما الباحث بالاهتمام، فإن الوصول إلى الهدف الثاني ليس سهل المنال، لكن هذا لن يقف حجر عثرة أمام المحاولة. ويبقى في الوصول إلى فهم الظاهرة تحقيق نصف النتيجة، وهذا في حد ذاته إنجاز لا يستهان به. وبناء على ما تقدم يصبح التفتيش عن السبب الواحد عملاً لا يفيد كثيراً في تقدم المعرفة

بالنسبة إلى فهم أي ظاهرة اجتماعية. تحديد العوامل المهمة من بين الأمور الصعبة، وعندما يتعلق الأمر بالدين، فإن المسألة تتعقد، وإذا ما تعلق الموضوع بقضية التطرف باسم هذا الدين، فإن المهمة تزداد تعقيداً وتزداد صعوبة.

التطرف موقف يتخذه المرء في ظروف كثيرة، وفي مجالات متعددة. والتطرف الديني أو التطرف في الدين أو التطرف باسم الدين، هو نوع من أنواع التطرف، وجميع الأديان عرفت التطرف والمتطرفين. عرفت المجتمعات، التي ظهرت أو انتشرت فيها الديانات السماوية وغير السماوية عبر العصور المختلفة، ظهور حركات تدعي بأن الدين الذي تتبعه هو الدين الذي يتضمن الحقيقة المطلقة، ويجب أن يتبعه جميع البشر، وأن من واجبها تحقيق هذا الهدف حتى ولو أدى الأمر إلى استخدام قوة السلاح والعنف، لذلك شنت حروب مدمرة باسم الدين، وقتل ملايين البشر باسم الدين، وفككت بنيات اجتماعية، وطمست ثقافات وحضارات، واقتلعت مجتمعات باسم الدين. كما ظهرت في داخل الدين الواحد جماعات اهتم أعضاؤها بإعادة تفسير النصوص بكيفيات وأساليب تختلف عما عرفه مجتمعهم من قبل، أو ما كان سائداً خلال الحقبة الزمنية المعنية. نتج عن هذا النشاط ظهور المذاهب والمدارس، وجرت صدامات مسلحة

بين التابعين لمذاهب مختلفة في داخل الدين الواحد، كما ظهرت جماعات في داخل المذهب الواحد اعتقد أعضاؤها بأن التفسير الذي يتبنونه هو التفسير الوحيد الصحيح، لذلك يجب على الآخرين أن يتبعوهم. وقد لا يكتفي أعضاء مثل هذه الجماعات بالدعوة السلمية فيتجهون إلى استخدام العنف، ويصبح الاستحواذ على السلطة السياسية شغلهم الشاغل، وقد يسلكون أي طريق، ويتعاونون مع أي جهة للوصول إلى هذا الهدف.

لم تنج مجتمعات كثيرة، ولا أديان مختلفة من ظهور مثل هذه الجماعات المتطرفة، التي ظهرت في أكثر من زمن، وعلى أكثر من رقعة جغرافية. صادفت بعض الحركات الدينية المتطرفة نجاحاً، وخصوصاً تلك التي ظهرت وترعرعت في أماكن بعيدة عن مقر السلطة المركزية، واتخذت من الأطراف ميداناً لأنشطتها. فقد تمكن بعضها من إنشاء دولة دامت سلطتها لبعض الوقت. وحتى بعدما زالت سلطتها السياسية، ظلت الأفكار الرئيسية للحركة موجودة بين عدد من المؤمنين بها، الذين بذلوا مجهوداً متميزاً لضمان استمرارها. بعض الحركات لم يكتب لها قدر كبير من النجاح، ولم تنتشر إلا في نطاق ضيق، وخسرت المعارك التي دخلتها متحدية السلطة الرسمية، وزالت من الوجود بمجرد موت زعيمها.

ظهرت الجماعات الدينية المتطرفة في مختلف الأزمنة، ولكن تميز القرن العشرون بكثرتها، وتعدد شعاراتها، وتنوع الوسائل التي عبرت بها عن نفسها، واتساع الرقعة الجغرافية التي طالتها أنشطتها. حدث هذا في داخل الديانات السماوية الثلاث وديانات أخرى. ليس العنف وحده الوسيلة الوحيدة التي عبرت بها هذه الجماعات عن نفسها، لكن كثيراً منها رأى في طريق العنف الوسيلة الأفضل. وجه العنف نحو الآخر، وتعددت صور الآخر؛ فكان الشخصَ الذي ليس عضواً في الجماعة نفسها مع انتمائه إلى الدين نفسه أو الطائفة الدينية نفسها أو المجتمع نفسه. وكان في أحيان أخرى المنتمي لدين آخر، أو من مواطني مجتمع آخر. كما شهد القرن العشرون تنوعاً في وسائل العنف، فشملت - إلى جانب الوسائل التي عرفت خلال عهود سابقة - استخدام أحدث ما توصل إليه العلم من معارف، وأحدث تطبيقاتها التقانية، وقيام الفرد بتفجير نفسه وسط جماعة، أو داخل مبنى.

اهتمت وسائل الإعلام المختلفة بأخبار الجماعات الدينية، ولكن لم يوجه هذا الاهتمام للجماعات الدينية بالتساوي، فلم تنل الجماعات التي لم توظف العنف سوى الذكر البسيط، وخصص الجزء الكبير من المساحات

الإعلامية لجماعات العنف. وحتى في الحالة الأخيرة لم يكن التوزيع بالتساوي، وإنما حصلت جماعات العنف الإسلامية على نصيب الأسد من اهتمام وسائل الإعلام العالمية.

يمكن للمرء تقديم أمثلة لبشاعة الأعمال التي ارتكبتها جماعات دينية متطرفة بغض النظر عن الدين الذي تنتمي إليه هذه الجماعات. لكن وسائل الإعلام العالمية تفننت في تضخيم أفعال العنف المنسوبة لجماعات التطرف باسم الدين الإسلامي. تنقل صور هذه الأفعال بسرعة، ويتكرر العرض مرات كثيرة، وتدار حولها مناقشات، وتكتب حولها مقالات ودراسات، وتنتج عنها برامج أشرطة وثائقية وأخرى سينمائية. أدى هذا إلى أن يرتبط عنف التطرف الديني - في أذهان الناس - بالدين الإسلامي. لم يقتصر هذا التصور على العامة بل تعداه إلى المثقفين بمن فيهم من تخصص في دراسات جماعات التطرف، ومتابعة قضايا العنف.

من ناحية، تميزت بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة عن غيرها، سواء المنتمية للدين نفسه أم المنتمية إلى أديان أخرى، بخصائص ساهمت في درجة تفردها، وفي بروزها. مثل تلك التي تسابقت إلى الإعلان عن تكفير الآخر سواء أكان فئة دينية أخرى في داخل الدين نفسه، أم كان ضمن التيار الديني العام، حتى بلغ الأمر ببعضها إلى تكفير

المجتمع بكامله. وتسابقت أيضاً في التفنن في أشكال العنف بهدف الترهيب، وتوسيع دائرته بحيث لم يقتصر على الفئة المتنفذة دينياً أو سياسياً، بل شمل المواطن العادي والمرأة حتى الطفل الرضيع (الموصللي، ٢٠٠٤). لكن إذا انفردت بهذا الجماعات الإسلامية الموجودة اليوم، فإن الأسلوب نفسه عرفته خلال الأزمنة السابقة اليهودية والمسيحية عندما زاول بعض رجال الدين الأسلوب الذي يزاوله اليوم من يشار إليهم بأمراء الجماعات الإسلامية. لكن التطرف المبني على تفسيرات لنصوص في الدين الإسلامي قد لا يختلف كثيراً عما تمارسه دول عظمى. يفترض أن العقلانية هي المبدأ الذي تنطلق منه قرارات الدولة الحديثة، لكن عندما ترسم سياسات مبنية على تصورات دينية معتمدة على بعض قصص وتنبؤات وردت في التوراة الذي يشار إليه بالعهد القديم، فإن العقلانية تركت جانباً واستبدلت بها حالة من حالات التطرف، وهو تطرف موجه ليس لأفراد ولكن ضد شعوب بأكملها. ولكي تتحقق نبوءة صيغت عندما كان العقل البشري في بدايات تطوره لابد من تهجير شعب على بكرة أبيه. ولكي يتم هذا، تسوغ أشد أعمال العنف التي تستخدم أسلحة لا تقتصر آثارها على الذين يعيشون اليوم، بل يمكن أن تلحق بمن لم يولد بعد.

إلى جانب إبراز أفعال الجماعات التي تتسمى بأسماء إسلامية متطرفة، نجحت وسائل الإعلام - وخصوصاً الغربي منها - في رسم صورة للمتطرف دينياً بحيث بدا التطرف الديني وكأنه صفة تلتصق بالدين الإسلامي. ونتج عن ترويج هذه الصورة أن شككت أجهزة الأمن الغربية في كل مسلم، وخصوصاً إذا كان صاحب لحية كثيفة، ومحيت من الذاكرة صور الرجل الملتحي، مسيحياً كان أم يهودياً أم مسلماً، عندما كانت اللحية من خصائص الرجولة، وهي صورة سادت لقرون كثيرة. كما محيت من الذاكرة صورة المتدين اليهودي صاحب اللحية الكثيفة الذي يعيش في الوقت الحاضر في مختلف أقطار العالم، وصور منتمين إلى ديانات تحرم حلق شعر الرأس والوجه.

لابد من الإشارة إلى أن وسائل الإعلام التي روجت هذه الصورة بدأتها وسائل الإعلام في أكثر من قطر عربي. وتجدر الإشارة إلى أن المنتسبين إلى بعض جماعات التطرف الديني أصبح يقدم نفسه بمظهر الشخص العادي في الفئة العمرية المنتمي إليها، بحيث رصدت أجهزة الأمن أفراداً شاركوا في تفجيرات كبيرة كانوا يعيشون حياة الشباب المقبل على جميع متع الحياة بما فيها من رقص وصخب وما يتعلق بهما.

ذكرنا أن الجماعات المتطرفة دينياً التي اختارت العنف أسلوباً للتعبير ظهرت في مختلف الديانات وليست حكراً على الدين الإسلامي، كما ذكرنا أن الجماعات الإسلامية تحصل على اهتمام العالم في الوقت الحاضر، وبلغ هذا الاهتمام درجة أعلنت معها أقوى دولة عسكرياً، وعدد من حلفائها، الحرب عليها تحت عنوان: الحرب على الإرهاب. وعليه رأينا من المناسب مراجعة البيانات المتوافرة عنها، بهدف إلقاء الضوء على المراحل التي مرت بها ابتداء من ظهور الفكرة، إلى وسائل الاستقطاب، وخطوات التطور والانتشار، وأهم أشكال أنشطتها.. إلخ. ونفترض أن الكثير مما يصدق على هذه الجماعات، يصدق على غيرها في ديانات أخرى.

الجماعات التي اتخذت شعارات دينية إسلامية في الوقت الحاضر كثيرة، وهي موجودة بشكل علني أو سري في جميع الأقطار العربية، وفي معظم الأقطار الإسلامية، وفي الكثير من الأقطار التي بها أقليات مسلمة. وهي متنوعة من حيث الهدف والحجم والنشاط. ليس العنف هو الهدف أو النشاط الوحيد في جميع الحالات؛ فمثلاً لبعضها علاقة قوية باستقرار النظام الاجتماعي واستمراره، حيث استطاع بعضها تنظيم جانب كبير من الأنشطة اليومية لأعضائها، كما وجهت

قسماً مهماً من النشاط باتجاه تقديم الخدمات الضرورية من تعليم وصحة وغذاء، وبعبارة أخرى تولت بعض مهام الدولة. وعليه كسبت ولاء أعضائها واحترام الآخرين لها. قاد هذا الوضع في النهاية إلى ارتفاع عدد المنضمين إليها، وتطور بعضها ليأخذ شكل حزب سياسي، لكن ما السبب الذي أدى إلى ظهور هذه الجماعات في الوقت الحاضر؟ وما أسباب هذه الكثرة وهذا التنوع؟

انتشرت في المنطقة العربية خلال القرن العشرين الأفكار والمبادئ المنبثقة عن ظاهرة الحداثة. احتلت بعضها - وخصوصاً العقلانية والتقدم والانفتاح - مكانة خاصة في كتابات التحديثيين وفي دعواتهم، وقد تبنى هذه المبادئ والأفكار أغلبية الزعماء السياسيين في مختلف أنحاء المنطقة، حيث عدوها طريقاً نحو التقدم، واللحاق بركب الشعوب المتقدمة اقتصادياً وتقنياً، إلا أن أفراداً وجماعات في كل قطر، ناصبوا ظاهرة الحداثة العداء، بعد أن ربطوها بفكرة تهديد القديم، وخصوصاً نسق القيم، بما في ذلك القيم المستمدة من الدين، أو تلك المرتبطة بالعرف، أو التي لها علاقة بالإيديولوجية السائدة. وأعطى هؤلاء لأنفسهم حق ومهمة الدفاع عن التعاليم الدينية الصحيحة، والخصوصية الثقافية، وكل ما يتصل بالأصالة. اتخذت هذه الدعوات

وجوهاً عدة، منها القومي، والعرقي، والديني. وقد تباينت من حيث الشدة والحدة، بالنسبة إلى الأسلوب الذي تنتهجه في الدعوة وفي العمل، حيث اقتصر بعضها على توجيه اللوم أو النقد والمحاورة بهدوء، واختار البعض الآخر أسلوب التبشير ومحاولة إدخال الآخرين ضمن الجماعة، كما لو كانوا سيدخلون إلى دين جديد، في حين اتخذ البعض الآخر من العنف أسلوباً، ومن التطهير العرقي أو القومي أو الديني هدفاً.

حظيت هذه الجماعات باهتمام الصحفيين والباحثين، لذلك تراكمت عنها البيانات. وقد عمد كتّاب وباحثون كثيرون إلى وصف هذه الجماعات بالأصولية، وهو وصف لا يعبر عن الظاهرة تعبيراً دقيقاً، ولكنه شاع في الكتابات العربية بوصفه ترجمة لكلمة: (Fundamentalism) والتي ظهرت في الكتابات باللغة الإنجليزية في وقت مبكر، لتصف الحركات التي ظهرت في الدين المسيحي، وتدعو إلى العودة للتعاليم الأولى لهذا الدين. وليس هنا مجال التعليق على الترجمة العربية، ونكتفي بالقول أن الكتابات التي تصنف تحت هذا العنوان في شبكة المعلومات العنكبوتية، تقارب المليون ونصف المليون عنوان. ويتضح من فحصها أن هذه الجماعات وجدت في مختلف بقاع الأرض، بغض النظر عن

الدين، وعن درجة تطور المجتمع بالنسبة إلى مقياس الحداثة، فكما هي موجودة في الوطن العربي، موجودة أيضاً في بلدان أوربة وأمريكة وفي أقطار آسيوية، بما في ذلك اليابان. ومع هذا تحرص كثير من وسائل الإعلام الغربية عندما تربط بين هذه الظاهرة والإرهاب، أن تجعلها ملتصقة بالعرب وبالإسلام، ولذلك تتبادر إلى ذهن الرجل العادي، وخصوصاً في أوربة وفي أمريكة، صورة العربي المسلم، عندما يأتي الحديث عن الجماعات الأصولية، وعن العنف، وعن الإرهاب.

الجماعات التي ادعت لنفسها مسؤولية إحياء الدين الإسلامي، والعودة به إلى سابق مجده في المجتمع، بعد تنقيته مما علق به من الشوائب، والعمل على إقامة مجتمع إسلامي، وحكومة إسلامية، والتي سنستعرضها في القسم التالي، هي الجماعات التي ظهرت في هذا القرن. ومع أن ظاهرة ظهور جماعات من هذا النوع في المجتمع العربي ليست جديدة، إلا أنه يمكن القول إن جماعات القرن الحالي، تختلف عن التي سبقتها في خصائص كثيرة.

فعلى عكس التي سبقتها في القرن التاسع عشر، وعرفت بأسماء مؤسسيها (السنوسية والمهدية والوهابية)، اختارت جماعات القرن العشرين لنفسها أسماء ذات دلالات دينية لها

معان خاصة ومقدسة في الثقافة وفي الذاكرة الشعبية. كما تمثل جماعات القرن العشرين نوعاً من أنواع الرفض للقيم الرئيسة التي جاءت بها الحداثة، وهي من هذه الناحية تقترب من الجماعات التي تسمى أصولية في بقية الديانات، وخصوصاً في الدينين المسيحي واليهودي.

استفادت جماعات القرن العشرين من التطور الذي حصل في وسائل الاتصال، كما لاقت - على شدة تطرفها - آذاناً صاغية (Kepel, 1994). لم تكن في البداية بهذا التنوع وهذا الانتشار الذي هي عليه الآن؛ إذ بدأت بجماعة واحدة، وظلت هكذا مدة جاوزت العقدين من الزمان قبل أن تظهر الجماعة رقم اثنان. لكن شهد عقد السبعينيات انفجاراً كبيراً في العدد، وفي الزعامات وفي تنوع الأنشطة. وتجدر الإشارة إلى أن الحركات الدينية التي سبقت حركات القرن العشرين، ونعني بها التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر، عمدت إلى تنظيم نفسها، والدخول في صدامات مسلحة مع الآخر، وكان الآخر في أغلب الأحيان غير مسلم، لكن كثيراً من جماعات القرن العشرين تبنت في البداية استراتيجية للعنف تتجه نحو الداخل، فالعنف يوجه ضد السلطة السياسية، وضد المواطنين.

تأسست جماعة الإخوان المسلمين في مصر، في نهاية عقد العشرينيات من هذا القرن. ومنذ الأيام الأولى

لظهورها، جعل زعماؤها الانتشار في العالم العربي والعالم الإسلامي أحد أهم أهدافها، ولذلك لم تبق حبيسة القطر المصري، بل حاول المنخرطون فيها إنشاء فروع لها في جميع الأقطار العربية والإسلامية، لذلك اعتبرت هذه الحركة أهم روافد الحركات الإسلامية التي ظهرت فيما بعد في أي جزء من العالم العربي. لابد من التذكير بأن الجماعات التي ظهرت فيما بعد تأثرت بمصدر آخر منبعه الباكستان، ونقصد به (جماعة إسلامي) التي أنشأها أبو الأعلى المودودي في مطلع الأربعينيات. ومع اختلاف بلد المنشأ فإن الأهداف المعلنة في البداية كانت واحدة، وتتمثل في إحياء تيارات العودة إلى الدين الإسلامي كما كان عليه الحال في بداية الدعوة. كانت الذريعة التي اتخذتها الجماعتان أن المد التحديثي الذي انتشر في البلاد العربية والإسلامية، عن طريق الاستعمار الغربي، قد أبعد المسلمين عن طريق دينهم الحنيف، مما أدى إلى تخلفهم، ولا أمل لهم في التقدم إلا عن طريق التمسك بأهداب الشريعة الإسلامية.

لكن المودودي أثار قضيتين على جانب كبير من الأهمية؛ تتلخص الأولى في بعث قضية الحاكمية من جديد، والتأكيد على المبدأ القائل: لا حاكمية إلا للإله الواحد القهار. وتتمثل الثانية في ضرورة إعلان الجهاد، لإقامة

حاكمية الله. وقبل إعلان الجهاد، على الجماعة الإسلامية أن تبقى منزوية في السر، وتتخذ جميع الإجراءات المناسبة، لتكون جماعة مستعدة استعداداً جيداً لتحمل أعباء المسؤولية الكبيرة.

عمل زعيم كل جماعة على نشر أفكاره بواسطة الكتابات المتنوعة، لقيت طريقها أولاً بين صغار السن، وخصوصاً من الطلاب، ثم امتدت إلى بقية فئات الشعب. ومع أن قيادات أخرى ظهرت فيما بعد، وكتبت هي الأخرى كتابات خاصة بها، فإن كتابات حسن البنا وسيد قطب وأبي الأعلى المودودي وأحياناً ابن تيمية ظلت بين الأدبيات التي يبدأ بقراءتها كل من أراد أن ينشئ جماعة دينية.

ذكرنا أن مصر كانت موطن ظهور جماعة الإخوان المسلمين، ويبدو أن مصر كانت البلد العربي، الذي توافرت فيه أكبر كمية من العوامل الضرورية لظهور مثل هذا التنظيم، فقد كانت في مقدمة الأقطار العربية التي تعرضت للاستعمار الغربي. عرفت مصر قبل ذلك وجود مؤسسات تعليمية، تتمحور برامجها حول علوم الدين، ووجود متعلمين لهم ألقاب دينية، ويحتلون مراكز اجتماعية مرموقة، لذلك حدثت مصادمات فكرية ودينية بين رجال الدين الإسلامي والمستعمر الغربي. ومع أن المستعمر الغربي تفوق بقوة السلاح، وفرض

نظامه وأفكاره، إلا أن الزعيم الغربي اضطر في أكثر من مناسبة، إلى أن يدعي إيمانه بالدين الإسلامي، أو أنه يرفع راية الإسلام، أو أنه جاء لإحياء كلمة الإسلام.

لكن المعارضة التي تستند إلى مبادئ الدين لم تمت، وظلت تعمل في السر، لذلك ظهر التململ المستند إلى الدين في بعض صفوف المتعلمين. عموماً تعاقبت الإدارات الغربية على حكم البلاد، ثم حصلت البلاد على استقلال تحميه جيوش المستعمر الإنجليزي، المتمركزة في عدد من المدن المصرية الاستراتيجية، وخصوصاً المدن المحيطة بقناة السويس. أدى هذا الوضع إلى ظهور عدد من الحركات المعارضة، انضم بعضها إلى الأحزاب السياسية الموجودة على الساحة، ونشط في الحياة السياسية، وبقي بعضها الآخر بعيداً عن الأضواء، وحصر نشاطه في نقاشات بين عدد محدود من الأصدقاء، أو في كتابات صحفية بين الحين والآخر.

تبنت النخب الحاكمة في البلاد العربية المستقلة فلسفات تخلط بين العلمانية والحداثة، مما جعل الذين لا يوافقون على مثل هذه العلمانية والحداثة يتطلعون إلى شيء آخر، وكان هذا الشيء الآخر هو حركة تلتحف برداء الدين الإسلامي. تنقسم هذه إلى مرحلتين رئيسيتين: المرحلة

الأولى هي التي بدأت بظهور حركة الإخوان المسلمين وما تفرع عنها من جماعات مصرية، والمرحلة الثانية هي التي ظهرت في أثناء غزو الاتحاد السوفييتي لأفغانستان، وعرفت بحركة الجهاد. ساهم في هذه الحرب متطوعون من مختلف الأقطار العربية رجعت أغلبيتهم إلى أقطارهم الأصلية فور انسحاب الجيش السوفييتي، وعرفت هذه الرحلة بعودة العرب الأفغان. لم تكن هذه عودة إلى أسر وإلى مجالات علم ومؤسسات اجتماعية؛ رجع العرب الأفغان إلى بلدانهم الأصلية ليكونوا خلايا سرية حافظت على تسميات جاءت بها من أفغانستان، أو اتخذت لنفسها تسميات جديدة. نجحت أغلب هذه الخلايا في تنفيذ أعمال عنف في كل قطر رجعت إليه. ونذكر فيما يلي شيئاً عن بعض جماعات المرحلة الأولى خصوصاً تلك التي ظهرت في مصر وفي الجزائر.

جماعات المرحلة الأولى

أ- الإخوان المسلمون

يذكر الذين أرخوا لحركة الإخوان المسلمين، أنها بدأت باتفاق بين سبعة أشخاص، اجتمعوا في مكان صغير في مدينة متوسطة الحجم، لكنها ما لبثت أن أصبحت منظمة ضخمة لها ما لا يقل عن (١٠٠٠) فرع في مصر وحدها،

وفروع في أغلب البلاد العربية والإسلامية. منظمة لها مطبوعات متنوعة تشمل الجريدة والمجلة والكتاب، ومؤسسات اقتصادية، وأخرى اجتماعية. وكما انتشرت الحركة بين الرجال، سرعان ما نظمت فروعاً خاصة بالصغار وبالشباب وبالإناث. وتجاوز المنضمون لها رسمياً نصف مليون شخص (متولي، ١٩٨٩: ٣١ - ٦٥).

اهتم زعماء الحركة بتجنيد كل من يمكن تجنيده، فركزوا أنشطتهم على المترددين على المساجد، وعلى طلبة المدارس الثانوية، يتفحصون الوجوه ويدرسون خصائص الشخصية، لتحديد درجة قبول الفرد للدخول في الحركة، إذ يمر تجنيد الأعضاء الجدد عبر سلسلة من الأنشطة، تبدأ بفحص المرشح لمعرفة مدى حمله بذور الانضمام. فالمداومة على الصلاة في المسجد في جميع الأوقات، والتعليم المحدود، صفتان هامتان في هذا المجال؛ فالمحافظ على الصلاة في المسجد وفي أوقاتها أكثر ميلاً إلى أن يستمع إلى أي حديث يمر عبر إحياء أصول الدين، وبعث الأخلاق الدينية وتقويتها، وإعلاء راية الإسلام. ويساعد التعليم البسيط على تقبل الفرد لوجود شخص فاهم يعلمه، ويرشده، بل يأمره، ويساعد أيضاً على تقبل التفسيرات الخاصة لآيات القرآن وللأحاديث.

كان مستوى طموح زعماء الحركة عالياً، وقد غذى التأييد الشعبي الذي لقيته الحركة بين مختلف فئات الشعب بمن في ذلك المثقفون ورجال الشرطة ورجال الجيش هذا الطموح. وخلال مدة زمنية قصيرة أصبحت لجماعة الإخوان المسلمين حصة في القاعدة الشعبية العريضة. استطاعت الجماعة أن تدخل في تحالفات مع مختلف أطراف السياسة من أحزاب سياسية مختلفة، وتنظيمات عمالية، وكذلك الملك والحاشية المحيطة به (متولي، ١٩٨٩: ٦٥ - ٦٦؛ مصطفى، ١٩٩٢: ٨١ - ٨٢).

تكاثفت عوامل كثيرة ساعدت على سرعة انتشار حركة الإخوان في مصر، نجمل أهمها فيما يلي:

١- بساطة مكوناتها ومتطلباتها المعلنة، ووضوحها، فهي في البداية دعوة لتنشيط المشاعر الدينية، وتطهير الدين من بعض ما علق به من دعاوى جاهلية.

٢- مجاهرتها بمقاومة حركات التبشير المسيحي التي كانت نشطة في مصر.

٣- القيام ببناء المساجد والمدارس والمصحات والمؤسسات، التي تقدم مساعدات للمحتاجين.

٤- المطالبة بإصلاح التعليم، وذلك بإعلاء مكانة

الدين واللغة العربية، بحيث تصبح مادة الدين من المواد الأساسية.

٥- التوجه نحو مخاطبة الفقراء والبسطاء، والناس العاديين من أبناء المجتمع بلغة سهلة، ودغدغة عواطفهم ومشاعرهم، المرتبطة بالإيمان بمفهومه الشعبي.

٦- المطالبة، بواسطة الكتابة والخطابة، بإصلاح أحوال الفلاحين ومساعدتهم، ورفع الظلم عنهم.

٧- المطالبة، بواسطة الكتابة والخطابة، بإصلاح النظام السياسي في مصر.

٨- المطالبة بتقوية أواصر العلاقة مع البلدان العربية والإسلامية.

اهتمت جماعة الإخوان المسلمين بالدخول إلى مختلف مجالات الأنشطة الحيوية؛ فأنشأت المساجد والمدارس والمستوصفات وجمعيات الشباب والنوادي الرياضية، ونظمت برامج للرحلات والمعسكرات التثقيفية. وشملت مؤسساتها الاقتصادية المصارف والمصانع والمحاجر والمتاجر، والمطابع ودور التوزيع. ثم شكلت تنظيماً عسكرياً، سمي بالنظام الخاص، تدرب فيه المنتسبون على

مختلف الأنشطة العسكرية، وشارك أعضاؤه في أعمال الكفاح المسلح ضد قوات الإنجليز، وفي حرب فلسطين الأولى، ثم في أعمال التفجيرات المحلية، والاغتيالات السياسية.

عندما شعر زعماء الإخوان المسلمين بأنهم أصبحوا قوة هامة، وأكبر من قوة الأحزاب السياسية، أصبحوا يجاهرون بالمطالب السياسية، ويفرضون الرأي، ويحركون الشارع، عندما لا تستجيب الحكومة القائمة لمطالبهم. تعددت أحداث الهجوم المسلح على بعض المحلات التجارية ورموز السلطة، وجمعت السلطة الرسمية أدلة تربط ما بين بعض هذه الأحداث وجماعة الإخوان المسلمين. لكل ذلك رأت السلطة السياسية أن الحركة خرجت عن الغاية التي أنشئت من أجلها، وأصبحت تشكل خطراً على النظام، فأقدمت في عام ١٩٤٨ على عمل من شأنه أن يلغي وجودها من مصر بالكامل؛ فأصدرت أمراً بحل الحركة، وألقت بعدد من زعمائها في السجن، وأغلقت جميع مؤسساتها، واستولت على أموالها، فردت الحركة بعد ثلاثة أسابيع فقط من بداية هذه الإجراءات، باغتيال رئيس الوزراء آنذاك، الذي عُدَّ المسؤول الأول عن هذا العمل ورأته ضد المصلحة الوطنية. قامت السلطة نفسها باغتيال زعيم الجماعة حسن البنا

بالطريقة نفسها تقريباً التي اغتيل بها رئيس الوزراء، واستمرت في مطاردة قيادات الحركة، لكن الحركة مع هذا لم تمت.

لجأ أعضاؤها إلى العمل في السر على شكل خلايا مستقلة، وبالتعاون مع التنظيمات الأخرى المعارضة. ثم رجعت مرة ثانية بصفة رسمية في أوائل الخمسينيات، وبدعم من القصر الملكي (هيكل، ١٩٨٣: ٢٨٢ - ٢٨٣).

لم ينظر الإخوان المسلمون إلى توظيف العنف، على أنه فعل خارج عن القانون، أو أنه فعل مؤقت، يوظف للوصول إلى هدف معين؛ بل وضعوه في موقع هام، وفي مقدمة الأهداف التي يسعون لتحقيقها. لم يستخدموا كلمة العنف في أدبياتهم، وإنما استخدموا مفهوم الجهاد. خصص حسن البنا للجهاد مكاناً متميزاً في خطاباته وتعليماته التي سماها رسالة الجهاد. وفيها يكتب: «.. أيها الإخوان: إن الأمة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الميتة الشريفة، يهبها الله الحياة العزيزة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة. فأعدوا أنفسكم لعمل عظيم، واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة. واعلموا أن الموت لابد منه، وأنه لا يكون إلا مرة واحدة، فإن جعلتموه في سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة.. فاعملوا للموتة الكريمة تظفروا

بالسعادة الكاملة. رزقنا الله وإياكم كرامة الاستشهاد في سبيله" (البنا، ١٩٩٠: ١٧١).

استعدت الحركة لتوظيف العنف بكل الوسائل، ابتداء من إعداد الشخص نفسياً واجتماعياً وعسكرياً، إلى تعلم سبل التعامل مع الأجهزة الأمنية للهروب من متابعاتها، إلى تفادي الاعتراف لها. وطورت الحركة نظاماً عرف بنظام الأسرة، المتكون من خمسة أشخاص أو عشرة متجانسين، يلتقون باستمرار، ويعملون معاً، ويعرفون بعضهم بعضاً معرفة جيدة (متولي، ١٩٨٩: ٧٩). من شأن هذا النظام أن يزود الفرد بدعم معنوي كبير، يتمثل في شعوره بالانتماء القوي إلى رابطة اجتماعية متماسكة، وأنه ليس وحيداً. كما وجد ما يعرف بالتنظيم الخاص، والذي يرشح للدخول له بعض من تتوافر لهم خصائص معينة.

وتبدأ مرحلة الدخول لهذا التنظيم بمراسم خاصة تعرفها الأنظمة السرية، وتتمثل في الدخول إلى غرفة مظلمة، وتأدية قسم أمام مسؤول، يضع الشخص في أثناء تأديته القسم يده على مصحف ومسدس، ويتعهد بالطاعة العمياء، والاستعداد للقيام بأي عمل يوكل إليه، وبعدم إفشاء السر مهما كانت الظروف، ويلتحق بمجموعة صغيرة، لا تتعدى خمسة أشخاص (متولي، ١٩٨٩: ٨١). كما يزود الشخص

بالمعلومات التي تساعده على تفادي مراقبة أجهزة الأمن، وتحاشي إعطاء معلومات إذا وقع في أيديها، تتضمن مجموعة من التعليمات التفصيلية عليه حفظها وتنفيذها بدقة (متولي، ١٩٨٩: ٧١ - ٧٢).

وجدت جماعة الإخوان في ثورة يوليو ١٩٥٢ فرصة ثمينة للرجوع إلى ساحة العمل علناً وبقوة؛ فهي ثورة على النظام السابق الذي وصفوه بالفساد، كما أن عدداً من الضباط الذين تولوا قيادتها إما أنهم كانوا أعضاء في الحركة يوماً ما، أو ما زالوا أعضاء بها، أو من المتعاطفين مع مبادئها. رأى عدد من زعماء الإخوان أن الثورة ثورتهم، فجاهروا في الإعلان عما يجب أن تفعله الثورة، لكن مدة تحالف الإخوان مع الثورة لم تدم طويلاً، فقد كان الخط الذي اختطته الثورة بزعامة عبد الناصر، مغايراً لما كان يطمح إليه الإخوان فحدث الصدام مبكراً. لم تتردد السلطة في الضرب بيد من حديد على كل من سولت له نفسه العمل ضدها، وحلت الحركة للمرة الثانية في العام ١٩٥٤، واعتقل عدد من زعمائها، ووضعت الحكومة يدها على مؤسساتها، لكن الحادثة التي أدت إلى قطيعة كاملة بين الثورة الحديثة العهد وحركة الإخوان المسلمين، هي ما أصبح يعرف في التاريخ بحادث ميدان المنشية في مدينة الإسكندرية؛ وهي

الحادثة التي أظهرتها الأجهزة الرسمية بأنها أولى محاولات الحركة لاغتيال عبد الناصر، وأُدخلت أعداد كثيرة السجن، وهرب آخرون من البلاد. ومرة أخرى، ومع كل هذه الإجراءات لم تمت دعوة الإخوان، وظل المنتسبون للحركة نشطين في داخل السجن، وفي خارجه، وفي داخل مصر، وفي خارجها. ثم جاء عقد الستينيات وأفرج عن بعض المسجونين من الإخوان المسلمين، فعاود بعضهم النشاط، وأظهر معاداته للنظام، واعتقل مرة أخرى، وصدرت أحكام على بعضهم بالسجن لمدد طويلة وعلى البعض الآخر بالإعدام (متولي، ١٩٨٩: ١٠٣ - ١٢٠).

يعد سيد قطب من بين أبرز قيادات الإخوان، الذين تولوا مكانة خاصة خلال الأيام الأولى للثورة، وكان أيضاً من بين القيادات التي دخلت السجن في الخمسينيات، ثم أفرج عنه في الستينيات، ودخل السجن مرة أخرى وصدر ضده حكم بالإعدام ونفذ في عام ١٩٦٦. نشرت كتابات كثيرة حول سيد قطب، بعضها معه وبعضها ضده. ولأن تاريخ حياته مليء بالمتناقضات، ولأنه نشر أفكاره، فقد وجد كل كاتب - بغض النظر عن خلفيته وموقفه - مادة جيدة عنه. ويعكس الوصف التالي الذي استعرناه من أحد الذين أرخوا لسيد قطب صورة مختصرة للتناقض الموجود في سيرة حياة

سيد قطب: ".. بدأ معلماً وانتهى زعيماً.. بدأ ناقداً للأدب، وانتهى ناقماً على الثورة.. بدأ شاعراً رقيق الحس، مرهف الانفعال، ينظر إلى الحياة نظرة فنان، وانتهى غاضباً، ساخطاً، متمرداً، محرضاً على الكفاح المسلح.. بدأ ملحداً، لا يثق في موهبة الدين على تغيير البشر، وانتهى متطرفاً، بعد أن جزم بتكفير المجتمع وجاهليته" (حمودة، ١٩٨٧: ٩).

يفترض أن السجن مكان ينقطع فيه المسجون عن العالم خارج السجن، لكن في حالة سيد قطب فإن القطيعة مع العالم الخارجي لم تكن كاملة؛ لقد واصل القراءة والكتابة والدعوة. وصلته مطبوعات فقرأها وتأثر ببعضها، فطور آراء أو فلسفة خاصة به. ودعا لآرائه بين المسجونين، ودوَّنها في شكل مكتوب، ثم هرّبها إلى خارج السجن فصولاً صغيرة ليطلع عليها الموجودون في خارج السجن. وبهذه الطريقة أنجز كتابه الذي يصفه البعض بالقنبلة (معالم في الطريق) (حمودة، ١٩٨٧: ١٢٨).

أيد سيد قطب ثورة يوليو كما فعل بعض زعماء الإخوان، بل إنه تبوأ مركزاً مكنه من وضع بعض خطبه وشعره ضمن المقررات الدراسية الجديدة. دعا سيد قطب مع غيره من زعماء الإخوان إلى إقامة مجتمع إسلامي في مصر، وكانت دعوته في البداية هادئة، حتى إنه دعا إلى التحدث مع

جميع الفئات بمن فيهم الشيوعيون، ثم دخل السجن. وتفيد البيانات المنشورة أنه لم يتعرض في السجن إلى معاملة سيئة، بل إنه قضى أغلب وقته في مستشفى السجن (حمودة ١٩٨٧: ١٣١ - ١٣٢)، لكن أحداثاً كثيرة غير سارة حدثت داخل السجن، وتعرض لها بعض زملائه، ونقصد هنا أعمال التعذيب الجسماني والنفسي، أثّرت في نمط تفكيره، بحيث جعلت منه أكثر عدوانية وأكثر تطرفاً، فقرر أن يكفر بعض الناس؛ فبدأ بمسؤولي السجن، وانتقل إلى مسؤولي وزارة الداخلية، ثم إلى رجال الحكم، وانتهى بالمجتمع الكبير. وصف المجتمع بالكفر وبالجاهلية، وقرر وجوب محاربته لإرجاعه للإسلام، ثم رفع شعار الحاكمية لله، وهو شعار أخذه سيد قطب عن كتابات الداعية الباكستاني أبو الأعلى المودودي؛ وهي كتابات نجح المتعاونون مع أعضاء الإخوان المسجونين في تهريبها إلى داخل السجن، وتمكن المسجونون من قراءتها وحتى مناقشتها.

يحدد سيد قطب في الصفحات الأولى من كتابه (معالم في الطريق) وبوضوح موقفه من المجتمع، ومفهومه للدين، والوسيلة الوحيدة لتغيير الأمور فيكتب: ".. إن العالم يعيش اليوم في جاهلية.. جاهلية لا تخفف منها هذه التيسيرات المادية الهائلة.. هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء

على سلطان الله على الأرض، وعلى أخص خصائص الألوهية وهي: الحاكمية.. إنها تسند الحاكمية إلى البشر.. نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم؛ كل ما حولنا جاهلية.. تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً، هو كذلك من صنع الجاهلية.. ولا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي، والتصورات الجاهلية، والتقاليد الجاهلية، والقيادة الجاهلية.. مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع. مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه. هذا الواقع الذي يصطدم اصطداماً أساسياً بالمنهج الإسلامي، وبالتصور الإسلامي، والذي يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش" (قطب، ١٩٨٠: ١٠ - ٢٢).

انتهت حياة سيد قطب محكوماً عليه بالإعدام، لكن أفكاره لم تمت معه؛ بل يبدو أن الحكم بالإعدام عليه رفع من شأنه عند بعض الناس، إلى درجة أن هذا البعض عندما يذكره، يضيف إلى اسمه صفة الشهيد. فهل أدى الإعدام إلى عكس ما أرادت السلطة؟

بقي المسجونون من الإخوان المسلمين في السجن إلى أن تولى الرئيس السادات الحكم، فخرجوا ضمن الجماعات التي أفرج عنها، كما سمح للموجودين في الخارج بالعودة (بكر، ١٩٩٦: ١٩٨ - ١٩٩). ومنذ الأيام الأولى قرر السادات أن يكون له خط مغاير لخط سلفه الرئيس جمال عبد الناصر، كما صمم على أن تكون له الكلمة العليا، وأن يحكم مصر منفرداً. لم يرض عدد من زملائه من قادة ثورة يوليو، ومن الأطر التي كونتها الثورة، فناصبوه العداء، وأصبحت تتكون في الساحة السياسية جماعات تتخذ خطاً معارضاً لسياسة الرئيس السادات، والتي تميزت بإلغاء الاشتراكية، وإهمال فكرة القومية العربية، والأخذ بمبدأ الانفتاح الاقتصادي، والابتعاد عن المعسكر الشرقي، والتقرب من أمريكة، والتفاوض مع إسرائيل. ضمت هذه الجماعات مراكز القوى التي تكونت في عهد الثورة، واليسار، والناصريين، والمعارضين للصلح مع إسرائيل، والمتضررين من سياسة الانفتاح (هيكل، ١٩٨٣: ٢٩١ - ٢٩٢).

عندما فكر الرئيس السادات في أن يختط نهجاً مغايراً لنهج الرئيس عبد الناصر، فكر بالاستعانة بالدين، فأخذ ببعض المظاهر التي اعتقد بأنها ستحسن صورته عند العامة؛

فأصر على استخدام اسم محمد قبل أنور، ثم أضاف صفة الرئيس المؤمن، واهتم بأن تنقل وسائل الإعلام الرسمية تأديته لشعائر صلاة الجمعة. ويرى هيكل أنه قرر الاستعانة بالجماعات الدينية، ليضرب بها الجماعات التي تعارض سياساته، فأوعز للأجهزة الرسمية ومؤسسات غير رسمية، بتسهيل وجود الجماعات الدينية على الساحة، وكانت الجامعات، كما يحدث في مثل هذه المناسبات، هي المجال الذي رؤي بأنه سييسر هذه المهمة. وسرعان ما سيطرت هذه الجماعات على اتحادات الطلبة، وعلى مختلف الأنشطة غير الأكاديمية (هيكل، ١٩٨٣: ٣٠١ - ٣٠٣). لم ترفع الجماعات الدينية في الجامعات شعار الإخوان المسلمين، كما اختارت لنفسها قيادات شابة جديدة. وعمت الجامعات والمعاهد، ثم الشارع المصري، ظاهرة جديدة، تميزت بما يسمى بالزي الإسلامي للذكور والإناث. لا يقدم هيكل وغيره من الذين تبنوا هذه الفكرة أدلة مادية على هذه الدعوى، سوى اعتبار انتشار هذه الجماعات، ونجاحها في أخذ مكان في الساحة السياسية دليلاً كافياً، لكن قد يرجع الأمر إلى أن هذه الجماعات لم تكن في حاجة إلى مساعدة الأجهزة الرسمية لتنتشر وتسيطر؛ فقد تكون الظروف التي تعيشها مصر، قد ساعدت بطريق غير مباشر على تكوين هذه الظاهرة، وهي ظروف تميزت بتسارع

معدلات التضخم، وتباعد الهوة بين الذين يملكون الثروة والسلطة، والذين لا يملكونهما، ومعدلات بطالة عالية، وتوجه محموم نحو الماديات، وإهمال كامل لبعض الإنجازات السابقة، بل التخلي عنها واعتبارها ضمن الأخطاء الفادحة. كما يرى البعض أن الرئيس السادات استعان بالجماعات الدينية، لضرب اليسار والناصريين ثم يلتفت إليها فيما بعد ليصفيها، إلا أنه أخطأ في تقدير درجة استقلالها عنه، ثم في تقدير درجة قوتها، مع أنها تمردت عليه في وقت مبكر من مرحلة حكمه. فالحادث الذي أصبح يعرف بحادث الكلية الفنية العسكرية وقع في العام ١٩٧٤، أي في العام الرابع من توليه السلطة، فكأن محاولته للتعاون مع هذه الجماعات أخفقت منذ بدايتها (متولي، ١٩٨٩: ١٢١).

حافظت الصحف المصرية خلال مدة طويلة من الزمن على نشر أخبار تكاد تكون يومية، عن أعمال لجماعات اتخذت تسميات دينية، وهي جماعات كثيرة قد يصل عددها إلى الأربعين. لكن بعض من اهتم برصد أنشطة هذه الجماعات يرى بأن كثرة التسميات لا تعني كثرة الجماعات، لأن التمييز بين بعضها بعضاً يكاد يكون مستحيلاً؛ لذلك يقول محمد خلف الله أن جميع الجماعات الموجودة على

الساحة المصرية، يمكن حصرها في أربعة فروع، وهي فروع للجماعة الأم، وتمثل هذه التفريعات الاختلافات التي حدثت بين زعماء الإخوان المسلمين (خلف الله، ١٩٨٧: ٦٤ - ٦٥). وعموماً يمكن القول إن حركة الإخوان المسلمين، ومع كل ما تعرضت له من مضايقات من قبل السلطة، ومن جماعات دينية جديدة، لم تمت في مصر ولا في خارجها، لكن بسبب بعض التطورات في السياسة المصرية محلياً، والتطور الذي حدث لبعض العلاقات الدولية الرئيسة ساهم في ظهور قيادات شابة، لها أفكارها وتفسيراتها واستراتيجياتها، ورغبت في تأسيس جماعات جديدة خاصة بها. بعض هذه الزعامات تبنت أفكار سيد قطب، وحاولت تنفيذ برنامج العمل الذي دعا إليه، وجماعات اتخذت الجهاد هدفاً محورياً. جهاد يختلف عن ذلك الذي عرفه المسلمون في بداية نشر الدعوة؛ جهاد موجه نحو رموز السلطة المحلية، وهي سلطة قررت قيادات هذه الجماعات تدميرها، وتغييرها بالقوة. تكاثرت هذه الجماعات خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات، لن نعمل على إحصائها جميعاً، فهي كثيرة، ولكننا سنشير إلى بعضها، والذي نراه أكثر أهمية من حيث برنامج العمل، وخطوات التنفيذ والعلاقة بالسلطة.

ب- شباب محمد (جماعة الفنية العسكرية)

إحدى أوليات الجماعات الدينية، التي تركت بصماتها على ساحة الصراع بين الجماعات الدينية والسلطة في مصر، هي التي عرفت باسم "جماعة شباب محمد". المتتبعون لتاريخ التسمية يرجعونها إلى النصف الأول من الأربعينيات، عندما انفصلت جماعة من الإخوان المسلمين، بعد أن اختلفت مع بعض مبادئ الإخوان، وكونت تنظيماً حمل لواء العنف ضد السلطة، وأطلقت على نفسها اسم: "شباب محمد". رفض أعضاء هذا التنظيم لغة المصالحة مع السلطة، التي سادت الخطاب الإخواني قبل أن يطور الإخوان تنظيماً داخلياً، متخصصاً في أعمال العنف سمي بـ (الجهاز الخاص) (أحمد، ١٩٩١ : ١٢).

لا يوجد في الأدبيات المنشورة ما يفيد بوجود علاقة مباشرة بين الجماعة التي ظهرت في أوائل السبعينيات، وتلك التي ظهرت في مطلع الأربعينيات، ولعل أهم أعمال العنف التي اشتهرت بها جماعة شباب محمد في السبعينيات هي الهجوم المسلح على الكلية الفنية العسكرية، لذلك درج البعض على تمييزها باسم "جماعة الفنية العسكرية".

قاد هذه الجماعة صالح سرية وهو فلسطيني، ويحمل الجنسية الأردنية، وتنقل وعاش في أكثر من قطر عربي،

وحصل على درجة الدكتوراه في علم النفس التربوي. كان في يوم من الأيام عضواً في عدد من الجماعات، مثل جماعة الإخوان المسلمين، وحزب التحرير الإسلامي، وفي منظمات فلسطينية فدائية (علي، ١٩٩٦: ٦٣؛ أحمد، ١٩٩٠أ: ٣٣- ٤٥).

تسمى - كغيره من الذين قادوا فرقاً دينية - بأمير الجماعة، وطور رؤية خاصة به نشرها في كتيب سماه (رسالة الإيمان). تتلخص رؤيته في العداء الشديد للغرب، وتكفير النظم السياسية العربية، وضرورة الجهاد لإسقاط جميع النظم العربية السياسية، واتخذ موقفاً عدائياً من فكرة الديمقراطية، التي نسبها للنظام الغربي، واتخذ الموقف نفسه من الحزبية، ولم يتردد في تكفير أي شخص ينادي بالديمقراطية أو ينضم لعضوية حزب سياسي (مصطفى، ١٩٩٦: ٢٢٥ - ٢٢٦).

نجح في أن يستميل إليه عدداً من الشباب، أغلبهم من طلبة الكلية العسكرية الفنية، واعتقد أن بإمكانه القيام بانقلاب وتغيير النظام المصري، فانتهز فرصة وجود رئيس الجمهورية وقيادات الحكومة في الكلية العسكرية الفنية، فشن وجماعته هجوماً على هذه الكلية.

أخفق الهجوم، وردت السلطة بعنف، وذلك بإعدام صالح سرية ومساعديه. نسبت أجهزة الأمن هذا العمل إلى

حزب التحرير الإسلامي، ورأت أن إعدام قائد الجماعة ومن معه أنهى هذا التنظيم في مصر. لكن يرى بعض المهتمين بتتبع أخبار هذا التنظيم أنه لم ينته بإعدام رئيسه، بل بقيت له ذيول في بعض مناطق مصر (بكر، ١٩٩٦: ٢٠١).

ج- جماعة المسلمين (جماعة التكفير والهجرة)

تزعم شاب يدعى شكري مصطفى تنظيماً عرف بـ "جماعة المسلمين"، ثم اشتهر فيما بعد باسم "التكفير والهجرة". أطلق على نفسه طه المصطفى شكري، أمير آخر الزمان، ووارث الأرض ومن عليها. وهي تسمية تعكس مدى تفخيمه للدور الذي يعتقد أنه يمكن أن يقوم به. كان منتمياً إلى الإخوان المسلمين، ودخل السجن في منتصف الستينيات، وخرج منه في أوائل السبعينيات ضمن الذين أفرج عنهم عندئذ. وفي داخل السجن فكر في تأسيس جماعة خاصة به، وبدأ بتجنيد أعضائها من بين زملائه في السجن. وبدأ فور خروجه من السجن بالعمل الفعلي لتنظيم جماعته الخاصة به في مدينتي أسيوط والمنيا. وكما فعل غيره ممن تسموا بالأمراء فقد صاغ رؤيته في وثيقة سماها (الخلافة) (مصطفى، ١٩٩٦: ٢٢٨، أحمد، ١٩٩٠ أ، : ٥٣ - ١٠٩).

حاول شكري مصطفى الرجوع إلى القرآن والسنة، والبحث عن آيات وأحاديث معينة، يقوم بتفسيرها بطريقة

معينة، تقترب طريقة تفسيره من فكر الخوارج وابن تيمية. تأثر بكتابات عدد من الذين سبقوه بغض النظر عن جنسياتهم، ومن بين أهم الذين تأثر بأفكارهم سيد قطب المصري، والداعية الباكستاني أبو الأعلى المودودي، والمفكر الإيراني علي شريعتي. هاجم النظام السياسي بعنف، وانتهى بتكفيره، ورأى أن النظام الكافر يقود إلى مجتمع كافر.

ترتب على هذا النمط من التفكير، أن قاطعت الجماعة جميع مؤسسات المجتمع الرسمية وغير الرسمية، ولجأ أعضاؤها إلى الأساليب البسيطة في الحياة، التي تخلو من مختلف وسائل التقنية الحديثة، وامتنعوا عن الصلاة في المساجد؛ فقد اشترط شكري مصطفى على جماعته ضرورة الابتعاد عن المجتمع، الذي وصفه بالجاهلي في أثناء مرحلة الاستعداد التي تسبق الهجوم على المجتمع، وتحطيمه ثم تغييره. وفي رأيه أن الابتعاد عن المجتمع المعاصر، ومقاطعة وسائل الحياة الحديثة، بما فيها من معارف علمية وتكنولوجية سيؤدي إلى بناء المجتمع الذي كان سائداً أيام ظهور الإسلام بما فيه من بساطة، وخلو من المصنوعات، وحتى سيادة للأمية. وأقام بعضهم بالفعل بعيداً عن المدن (مصطفى، ١٩٩٥: ٢٢٩). لكن لم ينتظر شكري مصطفى طويلاً، فما لبث أن ضاق صبره، وقام بعملية استعراضية في

عام ١٩٧٧، تمثلت في اختطاف الشيخ محمد حسين الذهبي، وزير الأوقاف آنذاك، وإملاء شروط إعلامية على السلطة، ثم قتل المختطف. قبض على شكري مصطفى وعلى عدد من أعوانه، وحوكم، وأعدم في عام ١٩٧٨ هو وعدد من تابعيه.

د- جماعة الجهاد

ظهر أيضاً على الساحة تنظيم آخر، عرف بتنظيم الجهاد، أسسه في بادئ الأمر شخص يدعى (سالم الرحال) كان ضمن جماعة الكلية الفنية العسكرية ولم يقبض عليه. وسالم الرحال هو أيضاً يحمل الجنسية الأردنية، وأنشأ في العام ١٩٧٧ مع أحد زملائه في الجماعة القديمة في مدينة الإسكندرية تنظيماً سمياه بالجهاد. وفي العام ١٩٧٩ انفصل أحد المنظمين للجهاد في الإسكندرية واسمه محمد عبد السلام فرج، وأنشأ في القاهرة تنظيماً أخذ الاسم نفسه. وكما فعل الآخرون، وضع أمير تنظيم القاهرة رؤيته في وثيقة سماها (الفريضة الغائبة)، والجهاد هو المقصود بالفريضة الغائبة. بينت الوثيقة أن الجهاد في سبيل الله واجب مقدس، وأن فقهاء المسلمين لم يقوموا بوظيفتهم بالشكل الأمثل، عندما تقاعسوا عن حث المسلمين على الجهاد، لكن الوثيقة تميز بين لونين من الجهاد، القريب المقصود به المجتمع

المحلي، والبعيد المقصود به العدو البعيد. وبنظرها الجهاد القريب هو الأهم في المرحلة الأولى لبناء المجتمع السليم، الذي ينطلق منه الجهاد نحو الخارج، لذلك وضع هذا التنظيم خطة للإطاحة بالحكومة في مصر، وإقامة نظام الخلافة الإسلامية (مصطفى، ١٩٩٥: ٢٢٩ - ٢٣٠).

استطاع هذا التنظيم أن يتواصل مع آخر في الجنوب المصري، ويسمى بالجماعة الإسلامية، ومن قادته الشيخ الضرير عمر عبد الرحمن، كما استقطب التنظيم عدداً من العسكريين.

درس عمر عبد الرحمن في الأزهر، وحصل على شهادة الدكتوراه، وعمل إمام جامع، واشتغل بالتدريس في مصر وفي السعودية. انضم إلى الإخوان المسلمين، ودخل السجن أكثر من مرة، ثم انضم إلى الجماعة الإسلامية، وقام بمهمة الإفتاء في داخل هذه الجماعة، وفي داخل جماعة الجهاد. أصدر مجموعة من الفتاوى تبيح القتل، كما تبيح أخذ المال من الآخرين بالقوة. أفتى بقتل الرئيس السادات، ووصلت الفتوى لبعض المشتركين في التنظيم فعدوها أمراً، ونفذ أمر القتل فعلاً في العام ١٩٨١.

قبضت أجهزة الأمن على الذين نفذوا عملية قتل السادات، وعلى عدد كبير من أعضاء تنظيم الجهاد. حكم

على البعض، وأفرج عن البعض الآخر، واستمر الذين بقوا خارج السجن في مزاولة نشاطهم التنظيمي. ويبدو أن الجماعة بعد اغتيال الرئيس السادات انقسمت إلى فريقين، تزعم أحدهما عبود الزمر، وتولى إمارة المجموعة الثانية التي احتفظت باسم الجماعة الإسلامية عمر عبد الرحمن (مصطفى، ١٩٩٦: ٢٢٩ - ٢٣١).

لم ينحصر هدف التيار الديني الذي خطط لقتل الرئيس السادات في الاكتفاء بهذا العمل، وإنما خطط للاستيلاء على الحكم؛ لذلك جرت محاولات في أكثر من مكان للاستيلاء على المرافق الحكومية، لكن انتهت هذه العملية بقتل السادات فقط، وألقي القبض على عدد كبير من المنتمين إلى جماعتي الجهاد والجماعة الإسلامية.

إلى جانب الجماعات التي ذكرت آنفاً يوجد عدد آخر من الجماعات تسمى بعضها بأسماء زعمائها أو أمرائها، مثل جماعة طه السماوي، وجماعة أحمد يوسف، وجماعة الشوقيين، وجماعة (الناجون من النار)، وجماعة التوقف والتبيين.

ويلاحظ أن كل جماعة صغيرة، موجودةٌ في قرية واحدة أو في مدينة واحدة، فالشعب والفروع أمر غير معروف لدى أغلب الجماعات الدينية، التي وجدت خلال العقود الأخيرة.

ويبدو أن كثرة الخلافات بين الأعضاء، والتنافس على الزعامة هما السببان الرئيسيان في ظهور هذا العدد الكبير من التسميات. فمع أن جميعها يشترك في المبادئ العامة، فإن كل أمير جعل لنفسه تسمية، ووثيقة فكرية، ومنهاج عمل، وأهدافاً، ومجموعة من التابعين، وفضاء خاصاً به لا يشاركه فيه آخرون.

تصورَ كلُّ زعيم لجماعة اتخذ اسماً دينياً أنه قائد فذ، وأن بإمكانه إحداث تغييرات جوهرية على المستوى القطري وحتى العالمي، وبالغ في تقييم نفسه، وفي مقدرته، وفي مقدرة جماعته. فهذا حسن البنا يخاطب تابعيه في أواخر الأربعينيات قائلاً: "وفي الوقت الذي يكون فيه منكم - معشر الإخوان المسلمين - ثلاث مئة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها روحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعدل والثقافة، وجسمياً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت، طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار» (البنا، ١٩٩٠: ١٨١). ثم يأتي شكري مصطفى ليلقب نفسه بأمير آخر الزمان، ووارث الأرض ومن عليها. إنها ادعاءات تستند إلى العاطفة، وإلى تصورات غير واقعية، وتهدف إلى دغدغة المشاعر والعواطف مخالفة النظرة الواقعية والعقلانية، اللتين ترتبطان

بمكونات التعليم الحديث الذي عرفته مصر لمدة زمنية غير قصيرة.

لا تمثل القائمة السابقة جميع الجماعات المصرية التي أخذت تسميات ذات دلالات دينية، ولكنها تمثل عينة للتيارات الرئيسة خلال المرحلة التي أشرنا إليها بالأولى. وقد شهدت المرحلة نفسها ظهور جماعات مماثلة في كثير من الأقطار العربية، أغلبيتها نسخ مكررة للجماعات المصرية؛ نتيجة للدور الذي قام به أعضاء جمعية الإخوان الذين انتشروا في بقية الأقطار العربية ليعملوا مدرسين وموظفين. لكن هذه الجماعات لم تلجأ إلى العنف إلا في حالات محدودة، نتيجة رد فعل على عنف السلطة. وتمثل الحالة الجزائرية خلال المرحلة الأولى تميزاً عن بقية الأقطار العربية.

حصلت الجزائر على استقلالها بعد حرب تحرير أخذت مكاناً مرموقاً بين حركات التحرير العالمية، وبعد استعمار دام أكثر من مئة وثلاثين سنة، عمل خلالها المستعمر كل ما يمكن للعقل البشري التفكير فيه، من أعمال التنكيل والظلم والاستبداد والتدمير والتجهيل. لذلك عندما بدأت حرب التحرير الجزائرية، بعد مرور نحو قرن وربع القرن من الاستعمار، لم يتجاوز عدد الجزائريين المتحصلين على

شهادة جامعية الألف شخص، أكثر من ثلثهم كان من المحامين (الكنز، ١٩٩٠ : ١٧).

وعندما حصلت البلاد على الاستقلال في مطلع الستينيات، توجهت بقوة نحو تحديث البنية التحتية، فتصدرت العناية بالتعليم ونشره بين الجميع سلم أولويات الدولة الوطنية حديثة التكوين، وكان أمراً طبيعياً أن تتجه الجزائر إلى الأقطار العربية، وبالتحديد صوب مصر، للحصول على المدرسين. ومع هؤلاء جاء عدد من المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين، وهو ما حدث في حالة أكثر من قطر عربي، سد عجزه في جهاز التدريس من مصر. لم يقتصر عمل بعض هؤلاء على القيام بالواجبات التعليمية، وإنما اتجه نحو الدعوة لجماعة الإخوان المسلمين وتكوين الخلايا السرية. وفي الستينيات ظهرت جمعيات، وأصدر بعضها منشورات ذات دلالات دينية مثل جمعية القيم، ومجلتها التهذيب الإسلامي، التي اضطرت السلطة إلى حظر نشاطها، على إثر الصدام الذي حدث بين جماعة الإخوان المسلمين والسلطة في مصر. ومنذ مطلع السبعينيات برزت في الشارع الجزائري بعض المظاهر التي تشير إلى شيء مما كان يجري في الخفاء، مثل تكاثر عدد الشباب الملتحي، وتكاثر عدد الفتيات

المحجبات، وظهور كتابات في الصحف تدعو إلى ضرورة التمسك بما سمي بالمظاهر الخارجية للإسلام. لكن بداية الثمانينيات هي التي شهدت ظهور الجماعات المسيسة وصاحبة الأسماء الدينية.

الجزائريون؛ كبقية سكان المغرب العربي، جميعهم مسلمون، ولا يوجد جزائري غير مسلم، كما لا توجد ولاءات مذهبية مثلما هو الحال في المشرق العربي، لذلك فإن مظاهر التدين في هذا البلد أمر طبيعي، لكن الجزائر حديثةَ الاستقلال، تبنت طريق الاشتراكية، والتخطيط المركزي، والتصنيع الثقيل، ونظام الحزب الواحد، الذي يؤكد وحدة الصف، ونبذ جميع مظاهر الخلاف. لذلك اضطر بعض الذين أرادوا التعبير عن مخالفة السلطة ومهاجمتها، إلى الهجرة والإعلان عن آرائهم من الخارج. وكانت بعض هذه الأصوات تستند إلى الدين الإسلامي، لمهاجمة بعض القرارات الرسمية، وبعض أنماط السلوك التي تدعو إليها الأجهزة الرسمية (علي، ١٩٩٦: ٧٢ - ٧٣). استطاع النظام السياسي من خلال عدد من البرامج، ذات البريق الشعبي، المحافظة على الأمن والنظام. لكن بعد رحيل الرئيس بومدين حدثت تغييرات أساسية؛ فبدأت المشكلات الاقتصادية تطل برأسها على شكل صعوبات في الإنتاج الصناعي، وتدنٍّ في

معدلات الإنتاج الزراعي، وارتفاع في معدلات البطالة، وتقهقر في أسعار النفط. كما تغير نمط تسيير الأمور، وسمح بشيء من الانفتاح في التعبير. وتزامن هذا مع نجاح الثورة الخمينية في إيران، والدور الذي أصبحت إيران الجديدة تؤديه باسم الإسلام على مسرح الحياة الدولية. وبدأت الجماعات التي اتخذت أسماء دينية في الظهور. كما بدأت الصدامات المسلحة منذ العام ١٩٨٢ (علي، ١٩٩٦: ٧٤). لكن الجماعات التي كان لها دور أساسي في ظهور وتطور وتعقد مسلسل العنف، الذي أصبح من بين خصائص المجتمع الجزائري المعاصر، هي التي ظهرت رسمياً في نهاية الثمانينيات وأوائل التسعينيات، بعد أن اعتمدت البلاد على نظام التعددية السياسية، وهي الجماعات التي اتخذت لنفسها أسماء ذات دلالات دينية، ولعل أهم هذه الجماعات ما يعرف بالجبهة الإسلامية للإنقاذ، التي اشتهرت في الصحافة الغربية باسم الفيس (FIS).

تأسست في العام ١٩٨٩، وأصدرت في السنة نفسها جريدة أطلقت عليها اسم (المنقذ). من زعمائها البارزين علي بلحاج، وعباس مدني. ومع أن الأخير حاصل على شهادة الدكتوراه في التربية من جامعة لندن، فإن الكتابات والشعارات التي رفعتها هذه الجماعة، تعكس بساطة شديدة

في التفكير، وغياباً للقضايا المصيرية، ومعاداة للعقلانية، ولا تتناسب ومظاهر التحديث للجزائر.

دخلت الجبهة انتخابات عام ١٩٩١ البرلمانية بشعارات تقول:

الأمة بين خيار تاريخي؛ بين القرآن والإلحاد.

الكتاب والسنة هما الرد الوحيد على أزمتنا ومواجهة مصيرنا.

تستمد الجبهة قوتها من الله تأييداً ومن الشعب مناصرة.

حصلت الجبهة على الأغلبية الساحقة في النصف الأول من الانتخابات. فرح زعماؤها بهذا الفوز، وأعلنوا سلسلة جديدة من الشعارات غير العقلانية التي لا تتناسب وطبيعة العصر مثل:

هذا يوم من أيام الله.

إنه يوم عظيم يعادل يوم فتح مكة.

الذين لم يصوتوا لصالح الجبهة سيذهبون إلى النار.

تسارعت الأحداث بعد إعلان نتائج الانتخابات النصفية، وحدثت تطورات من أهمها إلغاء نتائج

الانتخابات، وإلغاء موعد إجراء بقيتها، ومنعت الجماعات التي تتخذ أسماء دينية من أي نشاط سياسي. ردت الجبهة بعدد من الردود، من بينها تكوين جماعات مسلحة اتجهت إلى أعمال العنف، بهدف الاستيلاء على السلطة بالقوة، من بين هذه الجماعات: الجيش الإسلامي للإنقاذ، والجماعة الإسلامية المسلحة.

الجماعات التي اتخذت أسماء ذات دلالات دينية، وأرادت دخول الحياة السياسية كثيرة ومتنوعة. من بين أقدمها رابطة الدعوة الإسلامية، بزعامة الشيخ أحمد سحنون، تأسست في العام ١٩٨٩. وتأسست حركة النهضة الإسلامية بقيادة عبد الله جاب الله في العام ١٩٩٠، ودخلت الانتخابات ولم تفز بمقعد واحد. وتأسست حركة المجتمع الإسلامي أو (حماس) في عام ١٩٩١ بزعامة محفوظ نحناح، ودخلت الانتخابات، ولم تفز بمقعد واحد. شملت قائمة هذه الجماعات أسماء مثل حزب الله، وحزب التجمع الإسلامي، وجماعة التبليغ والدعوة، والتيار الإسلامي للحركة الديمقراطية من أجل الجزائر، بزعامة أحمد بن بلا أول رئيس للجزائر المستقلة، وجماعة التكفير والهجرة.

سمح النظام الجزائري بالتعددية، وفتح الباب على مصراعيه للتنظيمات الحزبية، فظهرت الأحزاب التي تسترت

وراء الدين، كما ظهرت الأحزاب التي اتخذت صفات إثنية إلى جانب الحزب الحاكم، وهو حزب جبهة التحرير.

جرت في عام ١٩٩٠ الانتخابات البلدية التي تنافست فيها التنظيمات الجديدة، وحصلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ على ٥٥٪، في حين حصلت جبهة التحرير الوطنية على نحو ٣٢٪ فقط، وتقاسمت بقية الأحزاب النسبة الباقية (الراسي، ١٩٩٧: ٣٣٣). عندما أعلنت نتائج النصف الأول من الانتخابات التشريعية، حصلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ على الترتيب الأول وعلى ١٨٩ مقعداً، وحصلت جبهة القوى الاشتراكية بقيادة آيت أحمد على الترتيب الثاني، ولكن بعدد من المقاعد لم يتجاوز ٢٥، وحصلت جبهة التحرير الوطني على ١٦ مقعداً وعلى الترتيب الثالث، ولم يحصل المستقلون إلا على ثلاثة مقاعد.

اعتقد كثيرون، وخصوصاً من بيدهم مقاليد البلاد أن استكمال الانتخابات سيؤدي إلى سيطرة الجبهة على المجلس النيابي سيطرة كاملة. وبحسب القواعد التي كانت معتمدة عندئذ، فإن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ستؤلف الحكومة. تسارعت الأحداث وتعقدت، ودخلت البلاد في دوامة من العنف لا يكاد يوجد لها مثيل، وخصوصاً خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي من حيث عدد الضحايا،

وخصوصاً الأبرياء من الأطفال والنساء وكبار السن من الرجال، وفي شراسة أعمال العنف وفي كمية التدمير، ولا تزال فلول الجماعات الجزائرية نشطة وتنفذ أعمال العنف إلى الآن.

جماعات المرحلة الثانية

القاعدة

بدأ التدخل السوفييتي العسكري في أفغانستان في شهر حزيران/ يونيو من عام ١٩٧٩. وكما يحدث في الحالات المماثلة تكونت جماعات مقاومة وطنية. رفعت هذه الجماعات شعار الحرب الدينية ضد قوات غازية وليس لها دين، ورأت هذه الجماعات أن مقاومتها ليست وطنية وإنما هي عمل جهادي من أجل الدفاع عن الدين الإسلامي. فتح هذا الترتيب الباب واسعاً أمام مشاركة مسلمين من مختلف بقاع الأرض، وبالفعل توافد هؤلاء في أعداد كثيرة، وكان أسامة بن لادن الذي أصبح يشار إليه فيما بعد بزعيم القاعدة من بين الأفواج الأولى التي التحقت بحركة المجاهدين الأفغان.

رأت أمريكة أن هذا التدخل سيؤدي إلى دخول السوفييت في مناطق جديدة من شأنه أن يعطي السوفييت مكاسب على

obeikandl.com

حساب النفوذ الأمريكي، لذلك قررت دعم الجماعات غير الرسمية التي قررت الدفاع عن أفغانستان. وعليه تعاونت مع بلدان عربية لتقديم مختلف أنواع الدعم لهذه الجماعات وخصوصاً تلك التي أصبح يطلق عليها العرب الأفغان. تعبت القوات السوفييتية من هذه المواجهة العسكرية غير النظامية، واضطرت أخيراً إلى الانسحاب من أفغانستان بعد عشر سنوات من تاريخ دخولها البلاد.

منذ البداية قررت جماعات الدفاع عن أفغانستان أن ينخرط القادمون الجدد في برامج للتعليم الديني إلى جانب التدريب على الأسلحة. يشمل التدريب الديني الانتساب لجماعة ترفع شعاراً دينياً، وتدرس كتابات تدعى فقهية، وهي تفسيرات جديدة للزعامات الدينية التي تتولى مهمة التدريس، وهي تفسيرات من شأنها أن تجعل الفرد متطرفاً دينياً.

مع أن باب الانخراط في هذه الجماعات كان من الناحية النظرية مفتوحاً أمام الجميع، إلا أن تكوين الأفواج كان يتم عبر أنشطة يقوم بها أفراد مهمتهم تجنيد الأعضاء الجدد. كان هذا التجنيد يتم في بعض الأقطار بصورة علنية بدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، وتعاونت البلاد التي يتم فيها التجنيد بهذه الصورة مع الأجهزة الأمريكية التي أوكلت إليها تقديم المساعدة، خصوصاً في مجالي النقل والتسليح. تتم عملية

التجنيد - في أغلب البلدان - بصفة سرية، ويهرب المجند إلى خارج البلاد بطرائق غير مشروعة، لذلك دخلت هذه الجماعات في أنشطة التزوير لإعداد الوثائق التي قد يحتاج إليها الهارب من بلاده. وتم رجوع من رجع من هؤلاء إلى وطنه بالوسائل غير القانونية نفسها التي خرج بها أول مرة.

حدثت خلافات كثيرة بين الجماعات المختلفة التي اشتركت في حركة الجهاد فور انسحاب القوات السوفييتية، وأخذ معظم من أطلق عليهم العرب الأفغان بالعودة إلى بلدانهم. لكن هؤلاء العرب الذين تعاونوا مع الأمريكان عادوا واختلفوا معهم فور انتهاء أعمال الحرب التي اشتركوا فيها، لذلك أفتى أسامة بن لادن بضرورة إخراج الأمريكان من أرض المملكة السعودية، وشهدت المملكة أول عمل من أعمال العنف ضد الأمريكان في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٩٥. توالت هذه الأفعال في داخل المملكة وفي مناطق أخرى في المنطقة العربية، وفي إفريقية، وفي أوربة، ثم ضرب مصالح في داخل الولايات المتحدة الأمريكية. وأخيراً جاءت أحداث ما أصبح يعرف بالحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وما تبع هذا الحدث من تداعيات في أنحاء متفرقة من العالم.

تنتشر الأعمال التي تسند إلى القاعدة في بلدان تتناثر فوق جميع قارات الأرض تقريباً، وقد أدى هذا الوضع إلى

أن تظهر القاعدة بصورة قوة ضاربة يمكنها تنفيذ أي مهمة مهما صعبت. لذلك تثار أسئلة حول القوة الفعلية للقاعدة مادياً وبشرياً وتقنياً.. إلخ. تمكنت القاعدة من الحصول على هذا التقدير بسبب السياسة التي اعتمدتها المتمثلة في أن ينتظم المنتمون إليها في خلايا صغيرة تدير شؤونها بنفسها؛ بمعنى أن كل خلية تشتغل بشكل مستقل عن المركز، بحيث تدرس وتقرر وتخطط وتنفذ بوصفها وحدة مستقلة. وهذا تطور في الكيفية التي تعودت عليها الجماعات الدينية، المتطرفة خصوصاً، التي كانت تلتزم بتراتبية في العلاقات مع وجود رئيس يأمر فيطاع.

بعض الملاحظات العامة المتعلقة بالجماعات الدينية الإسلامية المتطرفة

١- تنتشر الأفكار المتطرفة - بغض النظر عن طبيعتها - بواسطة علاقات الصداقة والقرابة، فالعلاقات التي تطورت بين أفراد في السابق، تستغل في عملية استقطاب وتجنيد أعضاء الجماعات التي تستغل الدين لنشر أفكار معينة، ولتنفيذها بوسائل خاصة.

٢- أعمال العنف المتسترة وراء دلالات دينية، ظاهرة ارتبطت بجيل الشباب الذي يعيش في المناطق

المتوسطة والفقيرة في القرى، وفي مناطق العشوائيات على أطراف المدن الكبيرة.

٣- أدت بعض الأحداث الدولية إلى ظهور أنظمة سياسية ذات ارتباطات دينية إلى تكاثر الأفكار المتصلة بإمكانية إعلان الدولة الإسلامية، وإحياء فريضة الجهاد. لذلك ظهرت جماعات تصورت أن بإمكانها - مهما تواضعت إمكانياتها - أن تقف في مواجهة السلطة، وأن تلحق الهزيمة بقوى عسكرية كبيرة.

٤- توجد اختلافات وعداوات بين أنظمة سياسية على المستوى العربي وعلى المستوى الدولي. قدمت بعض الأنظمة العربية وغير العربية الدعم المادي والعسكري والحماية بمختلف مستوياتها، للجماعات الدينية المتطرفة في الأقطار المختلفة معها سياسياً، والهدف من وراء هذا الموقف أن تنجح هذه الجماعات المتطرفة في خلق جو من الفوضى في داخل تلك الأقطار التي تناصبها العداء. وكان بإمكان أي نظام أن يجد جماعة تتحد معه في أعمال تزعزع استقرار البلد المعادي.

٥- قدمت الأنظمة التي استقطبت الجماعات التي تتستر وراء الدين لزعماء وقيادات هذه الجماعات الدعم

المادي، متمثلاً في توفير الأموال، والدعم الفني بفتح معسكرات للتدريب على استخدام الأسلحة، واستخدام وسائل تزوير الوثائق، وسرقتها وتصويرها، والدعم السياسي بتيسير مهمة الإقامة والعمل ووثائق السفر.

٦- يشكل المسجد والمدرسة والمعهد والجامعة مكاناً مهماً للاستقطاب والتجنيد.

٧- تشكل الأشرطة وسيلة هامة لنقل الأفكار والمعلومات والفتاوى.

٨- أدى إخفاق الدولة القطرية في مشروعها التنموي إلى تعاظم عدم الرضى الذي عبر عنه البعض بالانتساب أو الانخراط في جماعات العنف الديني.

٩- قاد تضييق الخناق على حرية التعبير، والتصريح بالرأي المخالف بالوسائل العلنية، قاد البعض إلى الانخراط في الجماعات التي تتستر وراء الدين. كما ساهمت الأفعال المنحرفة التي يرتكبها بعض رجال السلطة مثل الاضطهاد والظلم في انخراط كثيرين في هذه الجماعات وفي تقوية درجة التطرف.

١٠- التوسع في التعليم العام صاحبه ارتفاع في معدلات البطالة بين الشباب، وتنامي الفروق في الإمكانيات

المادية، جعل نسبة من الشباب تعاني من الإحباط الناتج عن تصورهم لمستقبل غير مشرق، بل انتشار شعور يشبه ذلك الذي يرد إلى الذهن عند الدخول في نفق مظلم.

١١- تنامي الشعور بدخول نفق مظلم لدى عدد كبير من الشباب، أدى ببعضهم إلى الاستجابة لدعوات مصدرها جماعات تقدم وعوداً معسولة، تحت ستار التدين القائم على تفسير خاص من نوع دخول الجنة فور تنفيذ أمر الموت.

١٢- ردت بعض الأجهزة الرسمية بقوة على أعضاء الجماعات التي استخدمت الدين لنشر أفكار خاصة بها، فأصدرت أحكام سجن طويلة المدى، واستخدمت مختلف وسائل التعذيب والتنكيل أملاً في بث روح الخوف والرعب، حتى لا يتورط آخرون ويسيروا في نفس الطريق. ساهمت هذه الإجراءات في رفع درجة كراهية الفرد لمجتمعه ولارتفاع درجة تطرفه.

خاتمة

الدين مصدر رئيسي لمختلف التصورات التي يطورها المرء حول الكون وحول مختلف أنشطة الحياة، كما أنه مصدر التيارات الفكرية الرئيسة، ومحتوى لأهم القيم والمبادئ السامية والطموحات العامة، ومصدر نسق الأخلاق في المجتمع الذي تتحدد في ضوئه أنماط السلوك الاجتماعي المقبول وتلك غير المقبولة لذلك كان من بين العوامل المؤثرة عندما بدأ الإنسان يبني ثقافة وحضارة، وثمة أنشطة كثيرة تتصل بالفرد أو بالمجتمع أو بالمحيط كان للدين الدور الرئيس لتحديدها. وبناء على درجة التقديس التي وفرها الدين لكل نشاط أو ظاهرة تحدد موقع النشاط، وكذلك الظاهرة في البناء الاجتماعي، وتمكن أولو الأمر في كل مجتمع منذ أقدم العصور التي توافر لها تاريخ من تسويغ كم هائل من الأفعال والظروف التي قد يستفيد بعض أعضاء المجتمع منها ويتضرر منها آخرون، لكن الجميع يقبلها بنفس راضية، وقد

يتساوى المستفيدون والمتضررون في درجات الرضا؛ لأنهم يتفقون على أن قوة خارجية هي التي قررت هذا الوضع؛ قوة تحاط بهالة من الاحترام والتقديس والطاعة والخوف؛ قوة تتصف بالعدل وحب الخير ومعرفة ما هو خير لكل فرد.

تنتشر في اللغات المختلفة تعبيرات تعكس هذا الاعتقاد فيقال: "الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه"، كما يقال: "الخير فيما اختار الله".. إلخ. تناولت التيارات الفكرية التي تطورت على مر التاريخ الأفكار أو الفلسفة التي كانت وراء انتشار مثل هذه الأقوال. وطرحت أسئلة رئيسة مثل: الإنسان مخير أم مسير، وهل كل شيء في حياة الإنسان قرر له قبل نزوله على الأرض، وما حجم الفعل الذي ترك لقراراته الشخصية؟ وتلك الأسئلة المتمحورة حول الراحة النفسية التي يحصل عليها الفرد من اتباع قواعد المعتقد الديني الذي يؤمن به. بعض التيارات لا تسمح للفرد بالاستمرار في عملية إثارة الأسئلة، إلا أن عدد الأسئلة يرتفع كلما قوي التراث العقلاني، وهو التراث الذي يستند إليه التفكير العلمي. لا يضع هذا النمط من التفكير سقفاً أعلى أو حدوداً لكمية ونوعية الأسئلة المسموح للعقل بطرحها، وهو تفكير مبني على التشكيك فيما يلاحظ وفيما هو على الأرض. وبعبارة أخرى يستثني التحليل المبني على هذا

المنهج الغيبيات التي هي من أهم أركان كل دين. لذلك عندما تعرض بعض موظفي هذا النمط من التفكير لتفسير الدين قوبلت اجتهاداتهم بسلسلة من الاتهامات صدرت عن ممثلي التيارات المحافظة التي رأت في إثارة مثل هذه الأسئلة ثورة تتضمن تهديداً لثوابت يرونها ضرورية لاستمرار حياة اجتماعية متوازنة.

ولكن تجدر الإشارة إلى أنه في الوقت الذي يقدم فيه الدين دعماً لاستمرار الأنساق الاجتماعية، فإنه يحمل في طياته بذور الثورة أيضاً. كان الدين في بدايته ثورة؛ جاء بنسق قيمي جديد يستدعي أنماطاً سلوكية تخالف التي كانت سائدة في المجتمع. ثم عندما اجتهد رجال الدين داخل الدين الواحد، وقدموا تفسيرات للنصوص، نمت مذاهب دينية ثورية. فلا شك أن اجتهادات مارتن لوثر كانت ثورة قادت إلى ظهور المذهب البروتستانتي الذي أصبح البعض يشير إليه على أنه دين مستقل، وهي ثورة أدت إلى تداعيات فكرية شملت مختلف نواحي الحياة، وأنتجت أو ساهمت في إنتاج مذاهب فكرية في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. لذلك خصص ماكس فيبر في دراسته للأديان وزناً كبيراً للمذهب البروتستانتي في ظهور الرأسمالية الاقتصادية (Weber, 1969: 20). لم يقل إن البروتستانتية

المتغير المستقل الوحيد الذي تسبب في ظهور الرأسمالية، ولكن ساهم المذهب البروتستانتي بقسط كبير في ظهور هذا الاتجاه في مجال الاقتصاد. فالتأكيد الذي جاء به المذهب البروتستانتي على أهمية النجاح المادي في الحياة، وجعل هذا النجاح مؤشراً للنجاح الحقيقي، وربطه بقيم لها علاقة بالدنيا وليس بالآخرة، ساهم في انتشار ظاهرة التنافس على مختلف الأصعدة بما في ذلك الاقتصاد.

قد يرى البعض أن هذه العلاقة بين البروتستانتية والرأسمالية مثال واضح للتناغم بين التفكير العقلاني والدين، فيتصل الدين بالجانب الوجداني للفرد، وعلى الفرد الإيمان بالمعتقد الديني بما فيه من جوانب ميتافيزيقية، في حين يتصل التفكير بالعقل، والتفكير العقلاني نوع من أنواع التفكير. يتم الإيمان بمعتقد من دون تفكير، ولا يستدعي البحث عن براهين عقلية لمحتوياته، لكن يمكن استخدام العقل للبرهنة على أنماط سلوكية، وطقوس تتصل بالدين وتفسيرها. لذلك يمكن القول إنه يمكن التوفيق بين الدين والتفكير العقلاني، أو بعبارة أخرى بين الدين وأنواع للتفكير العقلاني؛ بمعنى أن التفكير العقلاني مستويات وأنواع، وأن بعضها يمكنه التعامل من غير أن يفقد ثوابت العقلانية، وألا تلغى ثوابت الدين. كما يمكن عن طريق هذا النمط من

التفكير تفسير الاختلافات في التفاسير في داخل الدين الواحد، وتفسير الاختلافات ونقاط التشابه بين الأديان المختلفة. وإذا قبل المختلفون دينياً بهذا النوع من النشاط الفكري، يصبح بالإمكان تنظيم لقاءات فكرية موضوعية تحت عنوان حوار الأديان، فمثل هذا النوع من التفكير شرط ضروري لقيام حوارات بين الأديان ليست من نوع حوار بين طرشان. أما إذا ساد الفكر الديني المبني على إقصاء الآخر، فلا يتوقع أن تجرى حوارات فكرية ذات مغزى بين الأديان المختلفة مهما تكاثرت عدد التصريحات السياسية الداعية لإجراء مثل هذه الحوارات.

يظهر التعارض بين الدين والتفكير العقلاني واضحاً وقوياً خلال الحقب عندما تسيطر التفاسير أحادية التوجه، بحيث لا يسمح بالخروج عما يسود في المجتمع من طقوس دينية. حدث هذا في العديد من الديانات القديمة وفي الديانات التوحيدية، لذلك كان على المجاهر بالرأي المخالف الخروج من المجتمع هرباً بجلده، ولم ينجح البعض في الهروب فواجه مصيراً مظلماً. ويحمل التاريخ أمثلة كثيرة بقي بعضها حاضراً في الذاكرة الشعبية على مر العصور، واستمر وجودها شواهدَ على بعض مظاهر التغير بمستوياته العقائدية والفكرية والتاريخية. فمثلاً اضطر النبي

إبراهيم إلى ترك أرض أجداده عندما شكك في مقدرة الآلهة التي كانت على هيئة أصنام تعبد. وحكم سكان أثينا على سقراط بالموت مع أنه لم يعتد على آلهة أثينا بالتهجم ولا بالتكسير، لكن سكان أثينا رأوا في دعوته لسيادة الفلسفة تهديداً لاستمرار آلهة تعودوا على عبادتها. أمثلة سجلتها الأديان التوحيدية، لذلك عانى أصحاب العقيدة المخالفة من مختلف مظاهر الاضطهاد والمواجهة من أصحاب الدين السائد، كما مرت الأديان التوحيدية خلال حقب التاريخ بمراحل سيطرت فيها الأساطير والعقلية الخرافية على تفسير النصوص. بدت عندئذ التفاسير أو الفكر الديني كأنه الدين نفسه، وسادت خلال هذه الحقب التخلف والأُمية وانحصرت دائرة المتعلمين بين عدد صغير من رجال الدين أصحاب التعليم المحدود. فمع أن مستوى تعليم هؤلاء كان بسيطاً، إلا أن هذا المستوى هو أعلى ما كان موجوداً، لذلك انتشر الاعتقاد في فائدة التوسط بآخرين للحصول على الغفران والتأييد والشفاء من الأمراض والنجاح وقضاء الحاجات. تمثلت بعض هذه الوسائط برجال الدين في المجتمع، كما تمثلت الاستعانة بأماكن دفن فيها أشخاص حيكت حولهم حكايات وقصص خيالية، وأفعال خارقة لقوانين الطبيعة، وتتعارض مع أبسط قواعد العقل. ومع كل التقدم المعرفي، والانتصارات العلمية المتسارعة، فلا تزال

مؤشرات لمضامين العقلية الخرافية موجودة في المجتمعات التي تسود فيها الأديان التوحيدية. وما زالت أصوات المنددين بالعقلانية والتفكير العقلاني تسمع بوضوح في هذه المجتمعات، ولا يزال بعض رجال الدين في الديانات الرئيسة يوجهون كثيراً من التهم لموظفي العقل بما فيها تهم التكفير والهرطقة.

يؤدي الدين وظائف رئيسة في الحياة اليومية لكل الناس، لكن البعض يستفيد من بعض وظائف الدين بنصيب أكبر مما يستفيد به البقية؛ وذلك بتوظيفه بكيفية مختلفة، فالنخب السياسية مثلاً تستفيد من الدين بطريقة خاصة ومتميزة، إذ توظف هذه النخب الدين بغض النظر عن اسم الدين لإضفاء حلة من الشرعية على المشروع السياسي على مستوى الفرد وعلى مستوى النظام السياسي. تسييس الدين واستغلاله سياسياً ظاهرة معروفة في مختلف الأديان، تكون البداية ببرنامج سياسي للمرشح أو ما يشابهه، ثم الحزب السياسي، وانتهاء بالدولة. وبعبارة أخرى يتم الالتجاء إلى الدين ليحصل الفرد أو الحزب أو الدولة على تأييد أكثر مما سيحصل عليه لو لم توظف المشاعر الدينية. ومع كل ما يقال عن درجة علمانية الدولة الحديثة فإن المشاعر الدينية متغلغلة لدرجة كبيرة بين أبناء المجتمع، وبغض النظر عن طبيعة المجتمع.

لا ينشغل جميع أعضاء المجتمع بأنشطة تتصف باستغلال الدين سياسياً، إما لأنهم لا يرغبون في مثل هذا السلوك، أو لأنهم لا يملكون مقومات تكفي لنجاحهم في هذا المجال. لذلك فإن الذي يقرر استغلال الدين سياسياً يقوم بعملية من عمليات التحايل التي من شأنها أن تجعل المنافسة غير شريفة. تتطلب عقلانية النظام السياسي أن يكون التنافس على أساس الإمكانات الفردية، والمقدرة على العطاء، والاستعداد للإنجاز.

تسييس الدين لا يعني مأسسته، ومع وجود اختلافات الأديان الرئيسة، ففي الوقت الحاضر لا يستثنى دين من قضية المأسسة. منذ أمد كبير تميز الدين المسيحي بوجود مؤسسة دينية، ومنذ زمن قديم حصلت المؤسسة الدينية على مكانة مرموقة في المجتمع، ونجحت المؤسسة الدينية في فرض سيطرتها، وشملت هذه السيطرة -
خلال بعض حقب التاريخ - جميع الأنشطة الاجتماعية. وحتى بعد أن فقدت المؤسسة الدينية الكثير من سلطتها لا تزال تحتفظ بمكانة خاصة في المجتمع، ولا تزال تفرض سيطرتها على جانب من أنماط السلوك.

يمكن القول إن الشيء نفسه لم يحدث في الإسلام، خصوصاً في عصوره الأولى، لكن في الوقت الحاضر توجد

مأسسة في الدين الإسلامي تأخذ شكل مؤسسة من مؤسسات الدولة الرسمية، تختلف تسمياتها من بلد إلى آخر.

تشترك المؤسسات الدينية المسيحية والإسلامية على وجه الخصوص في القيام بدور تبشيري، كما تشترك مختلف المؤسسات الدينية بتقديم حزمة من الخدمات الاجتماعية لعدد من الفئات الاجتماعية من المؤمنين بالدين نفسه.

عندما يذكر الإرهاب اليوم فأول ما يتبادر لذهن السامع صور الجماعات الإسلامية المتطرفة، لكن لابد من التذكير أن العنف في الزمن الحالي ليس مصدره الجماعات الدينية فقط، توجد جماعات مارست العنف والإرهاب باسم الدفاع عن قضية قومية. ظهرت هذه في أكثر من بلد أوربي؛ بعضها توقف وبعضها لا يزال نشطاً، كما أن السلطة الرسمية نفسها قد تعمد إلى العنف والإرهاب، وقد يكون العنف الذي تمارسه جماعات دينية رد فعل لعنف السلطة وإرهابها، ثم إن الجماعات التي اتخذت تسميات ذات دلالات دينية أنواع مختلفة، ووجدت مثل هذه الجماعات بصورة سرية أو علنية في كل جزء من أجزاء الوطن العربي اتخذت أسماء مختلفة، بعض الأسماء وجد في أكثر من قطر، وبعضها في قطر بعينه. ويمكن القول بشيء من التجاوز إن أغلب الجماعات الموجودة الآن في الأقطار العربية، وتستخدم أسماء لها

دلالات دينية، ترجع بجذورها إلى حركة الإخوان المسلمين التي ظهرت أول مرة في مصر. وقد لا يوافق البعض على هذا الاستنتاج، خصوصاً أن بعض الزعماء الحاليين لجماعة الإخوان المسلمين يعارضون المواقف والأعمال التي تقوم الجماعات التي تتبنى العنف طريقاً للتعامل مع السلطة (متولي، ١٩٨٩: ٢٢). لابد من الاعتراف بأن مواقف هذه الجماعات متباينة، وأساليبها مختلفة، لذلك تتهم بعض الجماعات المتشددة جماعة الإخوان المسلمين في شكلها الحالي في مصر بالتواطؤ مع السلطة الرسمية لقبولها بأفكار النظام السياسي الرئيسية، مثل الدستور، والأحزاب، والانتخابات، والبرلمان.. إلخ، لكن هذا الاختلاف في الرأي وفي الوسيلة لا يعني بالضرورة اختلاف الجذور.

obeikandl.com

ثبت المصادر

أ- باللغة العربية

- ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، بيروت: طبعة دار الكتاب اللبناني، ١٩٩٩.
- بكر، حسن: العنف السياسي في مصر - العنف بين الجماعات الإسلامية والنظام السياسي، مجلة الفكر العربي، العدد: ٨٥ - ٨٦، ١٩٩٦.
- البنا، حسن: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، الإسكندرية: دار الدعوة، ١٩٩٠.
- بيرك، جاك، في: جلول وآخرون: ثلاثون مستشرقاً يشرحون الأصولية، مجلة الوسط، العدد ٩٦، ٢٩/ ١١/ ١٩٩٣.
- التير، مصطفى عمر: الدين والعقلانية ونمط تحديث التفكير العربي، ملاحظات مبدئية في: مجموعة باحثين: الدين في المجتمع العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠.

obeikandl.com

- التير، مصطفى عمر: اتجاهات التحضر في المجتمع العربي، ط ٢، طرابلس، منشورات أكاديمية الدراسات العليا، ٢٠٠٥.
- الجوهري، محمد: الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، القاهرة، دار الكتاب للتوزيع، ١٩٧٨.
- حسين، طه: مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٣٨.
- حمودة، عادل: سيد قطب من القرية إلى المشنقة، القاهرة، سينا للنشر، ١٩٨٧.
- خلف الله، محمد أحمد: الصحوة الإسلامية في مصر، ندوة الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧.
- الدرويش، قصي صالح: التنافس الشخصي والاتهامات المتبادلة داخل النظام أثرت على المصداقية، جريدة الشرق الأوسط، ٢٩/ ١٢/ ١٩٩١.
- الراسي، جورج: الإسلام الجزائري من الأمير عبد القادر الجزائري إلى أمراء الجماعات، بيروت، دار الجديد، ١٩٩٧.
- السواح، فراس: الرحمن والشيطان: الثنوة الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية، ط٣، دمشق، دار علاء الدين، ٢٠٠٤.

obeikandl.com

- عريبي، محمد ياسين: الصراع بين الأنا المنطقية والأنا الجدلية من منظور ابن سينا والغزالي، مجلة الوحدة، ١٩٨٨.
- علي، حيدر إبراهيم: التيارات الإسلامية وقضية الديمقراطية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦.
- فكار، رشدي: علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا، ط٢، باريس، دار النشر العلمية، ١٩٨٠.
- الفيومي، محمد إبراهيم: في الفكر الديني الجاهلي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣.
- قطب، سيد: معالم في الطريق، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٠.
- الكنز، علي: حول الأزمة: خمس دراسات حول الجزائر والعالم العربي، الجزائر، دار بوشان للنشر، ١٩٩٠.
- متولي، محمود: الإخوان المسلمون والعمل السياسي، دراسة تاريخية، القاهرة، شركة الفجر للطباعة، ١٩٨٩.
- المسيري، عبد الوهاب، وعزيز العظمة: العلمانية تحت المجهر، سلسلة حوارات لقرن جديد، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٠.
- موصللي، أحمد: الأصولية الإسلامية - دراسة في الخطاب الإيديولوجي والسياسي عند سيد قطب، بيروت، الناشر للطباعة والنشر، ١٩٩٣.

- موصللي، أحمد: موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤.
- الهرماسي، عبد الباقي: علم الاجتماع الديني - المجال - المكاسب - التساؤلات، في: مجموعة باحثين: الدين في المجتمع العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠.
- هيكل، محمد حسنين: خريف الغضب، قصة بداية ونهاية عصر السادات، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٣.

أ- باللغة الإنجليزية

- Arjomand, Said, "Universalism and Fundamentalism in Contemporary Islam", paper presented in the **XIVth World Congress of Sociology,** Montereal, Canada, 1998.
- Bell, Daniel, "The Coming of Post-Industrial Society" in Lawrence Cahoone, **From Modernism to Postmodernism,** ed., Cambridge Mass.: Blackwell Publishers Inc, 1996.
- Bellah, Tobert N., et al. **Habits of the Heart: Individualism and Commitment in American Life,** Uninersity of California Press, 1996.
- Dekmejian, Richard Hrair, **Islam in Revolution: Fundamentalism in the Arb World, Contemoorary Issues in the Middle East,** Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1982.

obeikandl.com

- Durkheim, Emile, **The Elementary Forms of the Religious Life,** Glencoe: The Free Press, 1974.
- Greetz, clifford, Islam Observed: **Teligious Development in Morocco and ondonesia,** Chicago, ILL: University of Chicago Press, 1968.
- Guazzone, Laura, (edit), **The Islamist Dilemma: The Political Role of Islamist Move-Ments in the Contemporary Arab World,** London: Ithica Press, 1995.
- Inkeles, Alex, "Convergence and Divergence in Industrial Societies" in Attir, Mustafa Omar, et. al., **Directions of Social Change: Modernization Theory, Research, and Realities,** Boulder: Westview Press, 1981.
- Holland, Dorothy, et al., **Identity and Agency in Cultural worlds,** Cambridge Mass: Harvard University Press, 2001.
- Kepel, gilles, The Revenge of GOD: The Resurgence of Islam, Christianity, and Judaism in the Modern World, Paris: Ediditions du Seuil, 1994.
- Lenski, Gerhard Emmanuel, **The Religious Factor: A Sociological Study of Religion's Impact on Politics, Economics and Family Life,** Garden City, N.Y.: Doubleday, 1961.
- Lerner, Daniel, **The Passing of Traditional Society,** New York: The Free Press, 1958.
- Moore, Wilbert, **Social Change,** Engleweed: Prentice Hall, Inc., 1963.
- Weber, Max, "major Features of World Religion", in Roland Robertson, Sociology of Religion, London: Penguin Books, 1969.

obeikandl.com